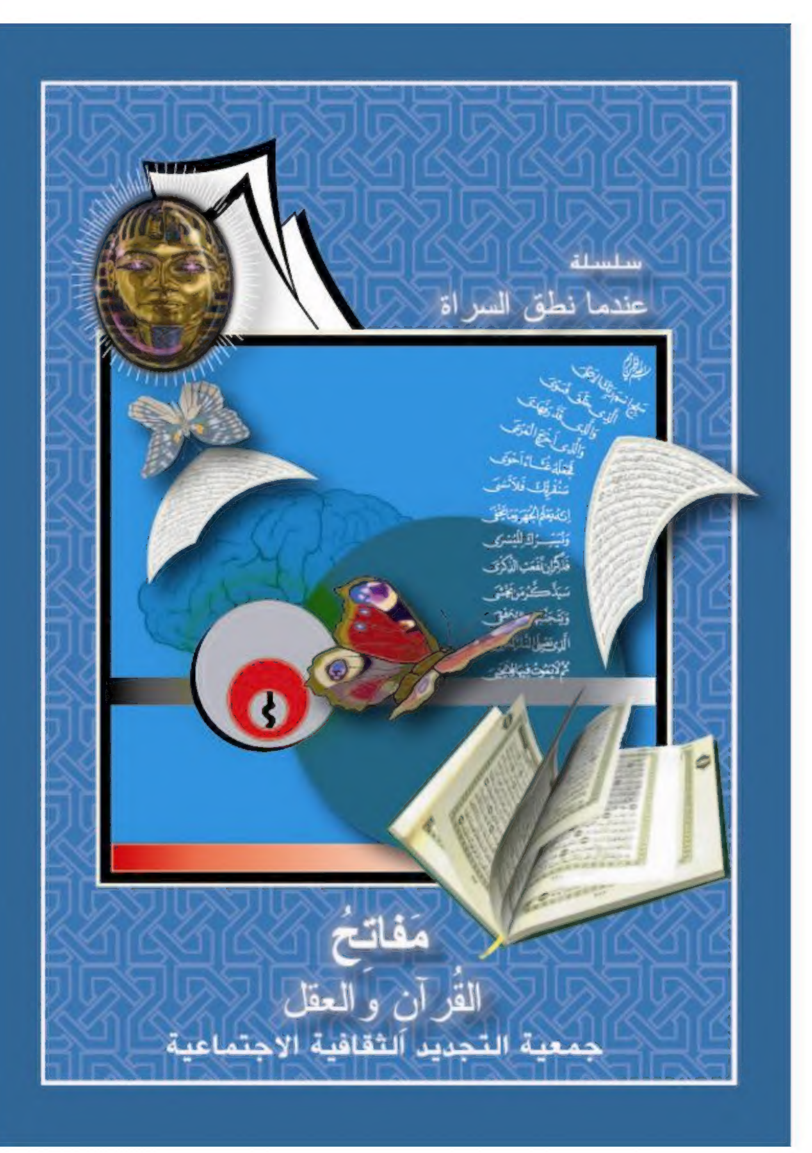

سلسلة
عندما نطق السراة
مَفاتحُ
القُرآنِ والعقل
جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

مفاتح القرآن والعقل

قسم الدراسات والبحوث

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

مملكة البحرين

الطبعة الأولى

2005

المقدمة

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)(فصلت:26).

حين تعلو أصوات أمّتنا اللاغية فوق صوت القرآن، صـــوت الحقّ، صوت العلم، "صوت الله"، فلا رجاءَ لغلبةٍ لها على الأمم. بعد الإيمان بأنّ أيَّ قيامةٍ غالبةٍ لابدّ من أن تنطلق مِنْ بطْـــن "كتـــاب الله" بالسمْع له، وأنّها لنْ تكون إلاّ مع تجرّد الدّاعي لله، أي داعي النزاهة والإخلاص، ذلك أنّ الله قد صاغ كتابه وضمّنه جميع أســـباب القـــوّة والغلبة والتمكّن، فمن تمكّن من هذا الكتاب وكشف علومه، تمكّن من العالَم، وتحاشياً أنْ يقع "علمُ الكتاب" في يدِ مَن ليس أهله، صـــاغه اللهُ مقفلاً عن القلوبِ المريضة ومفتوحاً على القلوب الواعية فقط **(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقـــرٌ وَهُـــوَ عَلَيْهِمْ عَمىً)**(فصلت:44)، لماذا؟؛ لأنّه كتبَ فيه قوانين العلم وإكسير الحضارات ونُظم الكون ومناهج الحياة وأسباب الغلبة وتسخير القوى، ليكون الصالحون فقط قادرين على استنباطه والانتفاع بذلك، فيكـــون التمكين الإلهيّ لهم، فأسبابُ الرقيّ وكيفيّة وراثـــة الأرض والـــتمكّن كُتبتْ فيه وسُطّرتْ في ثناياه وحُتِم التمكّن لهم فقط **(وَلَقَدْ كَتَبْنَـــا فِـــي**

الزَّبُـــورِ مِـــنْ بَعْـــدِ الـــذِّكْرِ أَنَّ الْـــأَرْضَ يَرِثُهَـــا عِبَـــادِيَ الصَّالِحُونَ)(الأنبياء:105).

بعد هذا، فإنّ أهمّ ما ينطلق بـــه المـــرء الـــصالح (والأمّـــة الصالحة) أنْ يصوغ قواعده ونظمه فإنّها أهمّ من النتائج، وخطرهـــا وخطأها أفدح وأعظم. القواعد التي نرنو إليها ينبغي أن تنحـــو تجـــاه فتح القرآن والعقل وتثويرهما، لا إغلاقهما والتضييق عليهما.

إنّ المنهجيّة التي نبحث عنها، منهجيّـــة همّهـــا فـــتح الفهـــم وضبطه لا التحكّم بالقرآن وحبْسه، تجعل فهْمَنا متّسقاً، وخارطة آيات الله منتظمة في أنساق منسجمة. نُدركُ أنّ أيّ عجلةٍ في إيجاد نـــسق (نظام) يحكم كتاب الله قدْ يقود إلى ليّ آياته بتعسّف، ويُولّـــد نظامـــاً نمطياً قمعيّاً للفكر وللكتاب أكثر مِنْ كونه اطّرادياً مُقنعـــاً ومحـــرِّراً. وأخو العجلة الهوى، ولو لصالح العقيدة والفكرة المسبقة، الهوى الذي يلتوي بالباحث عن الآية إلى تصوّره عنها، فبدلاً من أنْ يجعل الآيـــة ناطقةً، يكون قدْ أخرْسها ونطق عنها، وهذا ما يفعله –مع الأســـف– الكثيرون، رُبّما بحُسْن نيّة مِن بعضِهم.

لذا، ليس لنا أنْ نُبحر في كتاب الله الخالد مِـــنْ دون قواعـــد نحكم بها أنفسنا، هي بمثابة ضوابط أو منائر أو ثوابت قبْليّة صحيحة تَرشدُنا، وتُرَشّد طريقة تعاملنا مع هذا "الجهـــاز" المـــصباح المنيـــر، القرآن المبين، لنستضيء بنوره، ومصدر هذه القواعد والثوابت اثنان:

أولّها: كتاب الله نفسه، بالالتزام بمحكماته[1] مِنْ جهـــة، وباســـتقراء آياته لاستكشاف نظامه مِنْ جهةٍ أخرى.

ثانيها: الالتزام بنظام "اللسان العربيّ المبين" الذي نزل القــرآن بـــه ميسّراً، وجعله مدخلاً وواسطةً لفهمه.

[1]- سنبيّن في الكلام معنى محكماته ومثاله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـــيْءٌ)(الـــشورى:11)، و(قُولُوا لِلنَّـــاسِ حُـــسْناً)(البقـــرة:83)، (أَلَّـــا تُـــشْرِكُوا بِـــهِ شَـــيْئاً وَبِالْوَالِـــدَيْنِ إِحْسَاناً)(الأنعام:151).

الفصل الأوّل

قواعد فتح القرآن والعقل

هذه القواعد والمعطيات –القابلة للتطوير والتهذيب– هي:

القاعدة الأولى: معوّقات فهم كتاب الله

التخلّي عن معوّقات فهم كتاب الله من تحكّمات وضعها بعضُ المفسّرين والمتكلّمين، قبعتْ في أذهاننا كعراقيلٍ للتفكير السليم والفهم المنفتح. إنّ كلّ كتاب علميّ، تاريخيّ، سلوكيّ، اعتقاديّ، ينبغي أنْ يتوخّى الدقّة والحقيقة في مصطلحاته، فلو كانت كتب الفيزياء والرياضيات والكيمياء، تستخدم مصطلحات الشعراء والأدباء وخيالاتهم وتجوّزاتهم، لسقطت هذه الكتب ولاختُلِف في فهمها ولعسر تطبيق قوانينها، كاختلافنا في القرآن واعتساره علينا. لذلك رفضَ القرآن أنْ يكون فيه عوج، أو ريب، أو سحر، أو شعر، بل قد أُحكمت آياته على مواضيعها إحكاماً، وفُصّلت لها تفصيلاً بعناية تامّة، فنزل الكتاب بالحقّ لا بالأوهام المحتملة والأذواق. لقد كان فريقٌ سابقاً يلوون ألسنتهم بألفاظ الكتاب ليحسبه الناس من الكتاب، ولكنّا لوينا بقواعدنا واستعمالاتنا ألفاظ الكتاب ليكون قولُنا هو تفسير

الكتاب، فالأمر في الحالتين سواء، تضييع الكتاب وعدم الاستماع لـــه والإنصات.

ومع أنّ القرآن غير معنيٍّ في صلبه بسرد القصص، لا قصّة خلق الكون ولا قصّة آدم، ولا قصص النبيّين والأمم، وإلاّ لأتى بهــا كاملة وبتفاصيلها، لكنّه معنيّ بهداية الإنسان وتأهيله لدوره الكونيّ – ومن ضمن تأهيله إثارته ليُفكّر في إتمام القطَع الناقصة بهــدي مــن القرآن نفسه – إلاّ أنّه حيثما أورد طرفاً من تلــك القــصص فإنّمــا يوردها بكلّ بساطة الحقّ والصدق بلا تمويه ولا خــداع ولا تزويــق ولا أصباغ ولا محسّنات، لكنْ حيثُ أنّها مجرّد أجزاء واقتطاعات من القصّة أو زوايا منها، فهنا يحتار النّاظر، فإنّك حــين تــرى صــورة عيْنٍ، تحتار في إتمام الصورة، أهي عين إنسان، أم حيوان، غزال أم حمار، وإذا كانت عين إنسان أهو ضاحكٌ أم باكٍ؟ المصوّر الذي أتاك بالصورة لم يقصد خداعك والتمويه عليك، بل ولا تعجيزك، بل الذي ناسب استثارتك من جهة وبحثه من جهة أخرى وصــلْبَ موضــوعه هو هذا المقطع من الصورة فقط، فإذا كُنت خبيراً بمــا فيــه الكفايــة بالصور وبأحوال الإنسان، قد تقطع في النهايــة أنّهــا عــين إنــسانٍ ضاحكٍ، وأنّ حجم العين المصوَّر يدلّ على كذا، واتّساع البؤبؤ علــى أنّ الإضاءة كانت كذا، والظرف الذي أُخِذت فيها الصورة هو كــذا،

الخ. ومن القواعد التي يُراد تنحيتها جانباً لأنّها تعترك مع بساطة الحقيقة القرآنية:

قاعدة الحقيقة والمجاز وأخواتها: كانت محلّ اشتباك وجدل بين علماء المسلمين، حتّى أنّ البعض ألّف فيها كتباً قيّمة تأييداً أو نقضاً، ما يهمّنا هو سحب قواعد أصوليّة لفظيّة مخترعة لمساحات أخرى، على كتاب الله المبين، مع أنّها محلّ نزاع بين القوم، كأصالة الظهور، والتبادر، والحقيقة، وكأنّما كتاب الله (وإنّه لحقّ) هو كتابٌ تكليفيّ على المكلّف إبراء الذمّة بالعمل بأحد الأصول العمليّة حين الشكّ لتوفير الحكم الظاهر؟! ففي حين يدعو القرآن أنّه لا شكّ فيه، ولا وهم، ولا باطل، ولا شعْر، ولا كهانة، بل الحقّ وليس إلاّ الحقّ، وحين يدعو إلى اكتشاف نظامه بالإنصات له، وحين يدعو إلى تدبّره وفتح أقفال القلوب والأفهام، وحين يُقسم سبحانه أنّه ينطق بالحقّ كما أنْطق الإنسان، ذهبْنا ناحيةً وحوّلناه إلى كتابٍ شرعيّ نبحث عن أدنى حدّ من التكليف الظاهر به الذي نبرئ به ذممَنا، وفي عُرفنا أنّ ما يوافق قواعدنا هو المقدار الذي تعبّدَنا به منزلُ الكتاب سبحانه، وكأنّ الأمر كلّه، وهمّ القرآن كلّه، وغايته كلّها، تكليفٌ وعبادة وطقوسٌ وانقياد أعمى!

عموماً أنّ الذي يعنينا، أنّ من تلك القواعد التي تهرب بنا بعيداً عن فهم القرآن وتقزّمه إلى تكليفٍ شرعيّ لإبراء الذمّة، هي

قاعدة الحقيقة والمجاز (مع أخواتها مــن قواعــد الحــذف والتقــدير والإبدال وغيرها)، في الحين أنّ القرآن كلّه حقيقة، لا كناية فيــه، ولا خيال، ولا مجاز، فإذا أراد سبحانه التشبيه والتمثيل فإنّه يقول صريحاً (مثل)، (كمثل)، (كاف التشبيه)، ولو خلط لنا الأمور لأوهمنا ولــسقط الإحكام في كتابه ولاشتبه علينا، وهذا لا ينفي أنّ الكلمة المُعجزة في القرآن فيّاضةٌ تقصد معنى وتُومئ إلى معنى وتستبطن معنى وتثيــر معنى. ولكنّهم – رحمهم الله – توسّعوا جدّاً فجعلوا ألفاظاً تروقهم هي الحقيقة، بها قاسوا الأشياء والكلمات، ثمّ دبّ النزاع بينهم حول أصالة اللفظ وما وُضِع له، وهذه النزاعات لن تُطوى، حتّى يحسموا أمــوراً كثيرة، منها مسألة معنى "كلام الله" القضية التاريخية التي لعبت عقيدة السياسة دوراً في افتعالها، وأزليّته أو حادثيّته، ومنها أصل اللغة هــل هو وحي أم تواضع، وهل الألفاظ قصدية أم اعتباطية، وكلّما أردنا أن نخرج من غمّ نعود فيه. وقد دخلت العقائد في تسيير "ماكينة" الخلاف بين الحقيقة والمجاز، فإنّ سابقَ فهْم (**يَدُ اللَّهِ فَــوْقَ أَيْــدِيهِمْ**)(الفــتح: 10)، و(**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**)(القصص:88)، و(**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**)(القلم:42)، و(**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْــتُ بِيَــدَيَّ**)(صّ:75)، و(**قَالَ لَنْ تَرَانِي**)(الأعراف:143)، و(**إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**)(القيامة:23)، و(**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً**)(الفجر:22)، و(**وَكَلَّمَ اللَّــهُ مُوسَــى تَكْلِيمــاً**)(النساء:164)، وغيرها من آيات اليد والحركة والحدوث على

الله، كانت تُحكَم في ذهن المفسّر أوّلاً، لينبثق على ضوء اعتقاده قواعدُه، التي بها يُلوى كتاب الله بعدئذ، أي أنّ الأمر جرى معكوساً هكذا:

الاعتقاد --> القواعد --> قراءة القرآن

بينما كان ينبغي أنْ يكون الأمر من اليسار إلى اليمين مقلوباً. فكان "الكشف عن ساق" كناية عن هول الشدّة في عرف مدرسة المجاز، وكشفاً لساق الرحمن في فهم مدرسة الحقيقة! والقرآن يتفرّج لا يقرّ لا لهذا ولا لذاك.

وصارت "خلقتُ بيدي": بقدرتي، و"يد الله": قوّة الله/ معونة الله/ نصر الله، وجرتْ العادة أن يُقدَّر محذوفٌ متغيّر من مفسّر لآخر ليُضيف كلمته في كلام الله، بين فراغات الآيات المتوهّمة وبين سطورها، وكلّما زاد التقدير وتُفنّن فيه زاد الحذق في الصناعة؛ فـ "إلى ربّها" صارتْ: إلى رحمة ربّها ناظرة، ولنا أنْ نقترح إلى جنّة ربّها/ إلى ثواب ربّها/ إلى عطاء ربّها ...الخ، و"جاء ربّك" جاء أمر ربّك، ولعلّه: عذاب ربّك/ نائب ربّك/ مبعوث ربّك/ حسابُ ربّك، وهكذا يُفكّك المفسّر حسب اعتقاده بناء الآيات ويهتك الحدود اللغوية

للنصّ ليُضيف من لبناته ما يشاء ويُعيد نسجه حسب تقديره، فبدلاً منْ أنْ يُمارس "اكتشاف" المعنى الثاوي في النصّ مارس "اختراع" معنىً ليس فيه، ليُخرج قرآناً نصفه كلام الله ونصفه كلام البشر، فيُنتج أنّ الله الذي لمْ يُفرّط في الكتاب من شيء قدْ فرّط في نصفه، سبحانه، و"**الكتاب المسطور**" أضحى الكتاب المشطور، وبِتْنا كحال (**الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**)(الحجر: 90، 91)"!

إنّ المتتبّع لألفاظ القرآن، لِيقرأ القرآن كما هو، ولِتكون عقيدته من القرآن، لنْ يهمّه أنْ يثبت شيئاً مسبقاً إلاّ ما قاله القرآن، وما أيسر الحكم في الآيات أعلاه لو أنّهم هداهم الله حكّموا الآية بدلاً من اللفظ، ليُدركوا أنّ استعمال اللفظ في سياقه هو الظهور وهو الحقيقة، ولو كانت العقيدة الكونيّة مأخوذة من القرآن لما أشكل معنى (**يَدُ اللَّهِ**)(الفتح:10) ولا (**وَجْهِ اللَّهِ**)(البقرة:272)، (التي لا يمكن أن تتعارض – بل لا يمكن إلاّ أن تنسجم– مع المحكمات الأصوليّة من مثل: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)(الشورى:11)، (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**)(الشورى:51)، (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)(يّس:82)، (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**)(الإخلاص:1)، (**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**)(البقرة:163) فلو أنّهم أعزّهم الله فتّشوا عن المحكمات أوّلاً واعتمدوها خطوطاً حمراء،

ثمّ لو أنّهم أسقطوا مدرسة الترادف وفرّقوا بين مفردات "ربّ" وبين "الله" كما هي متميّزة في الحقيقة العربيّة وفي القرآن، لو أنّهم أعملوا النظر في كلّ حرف ولفظة في تركيب الآية وسبب وجودها وآمنوا بهندسة التعابير والفقرات القرآنيّة، لما قالوا "بظنّية الدلالة"، ولما أشكلت تلك الآيات وتاهوا في حقيقة أو مجازات المجيء والرؤية والنظر واليد والساق، ولما أعملوا الحذف والإضافات والبدليّة والتقديرات، ولو التفتوا إلى بناء المجهول في "(**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**)(القلم:42)" لما توهّموا "الساق"[1]وساقوها عنوةً في الاستدلال وحشروها مع آيات العقيدة الإلهيّة بالتنزيه أو التجسيم أو الكناية أو غير ذلك. وإذ أنّهم لمْ يعترفوا بشيء اسمُه "اللسان العربيّ المبين" الذي يُغاير ألسنة الشعراء، وإذ أنّ قاعدة الحقيقة والمجاز على مستوى اللفظ أضاعت معنى المفردة العربيّة للمدى (الأصل) الذي وُضِعتْ له وتحرّكت فيه وعبّرت لهجات القبائل العربيّة في البقاع عن بعض ظلالها، فصار "الساق" حقيقةً في الرجْل، ومجازاً في أيّ شيء آخر، بينما هو من "السوق" وهو الإرسال والتحريك والحدو والبعث، بشرط أن يكون مبعث السوق والتوجيه هو المتأخِّر، على

[1]– النظرة التجزيئيّة، وقواعد الحقيقة والمجاز، قادت إلى مثل هذا، فلمْ يتمّ الربط بين هذه الآية وآية (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)(القيامة:29)، لينفتح الأفق على المعنى. والاجتزاء هذا يضحى ظاهرةً، حين يتمّ التعاطي مع الآيات ذات الإشكالات الفكرية العقديّة، أو تلك التي يُراد استنطاقها قيْصريّاً لتواطئ مقولات الاكتشافات الحديثة!

خلاف القيادة فالقائد متقدّم، والسائق متأخِّر، والـ "ساق" هو الآلة التي يتّكئ عليها المسوق في حركته، "ساق" الشجرة هي وراء تشجّرها، وهي التي تُحدّد اتجاهها في الأعلى وتتكئ عليها وتتغيَّر بها.

ولو أردنا حلّ مثل هذه الآيات لأطلنا، لكن بناءً على هذا التفريق، بإمكاننا القول كمثالٍ وباختصار؛ إنّ "السوْق" بناءً على ما قدّمنا أنّ معناه الإرسال والتتابع والحدْو وهو عكس القيادة، فالسوْق من خلف، والإنسان في الدنيا قابعٌ ومتخلّف فيها إلاّ أنّه يسوق ويُرسلُ على التتابع (يبثّ) في كلّ لحظة نُسخةً من أعماله، من شخصيّته للعالَم الآخر الموازي لهذا العالَم، فإذا حان أجلُه وانتقل إلى العالَم الآخر فكما قال تعالى (**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً**)(الكهف: 49)، هو نفسه (**كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً**)(الإسراء: 13) يلتفّ عليه ذلك الساق، ليسوقه نحو اليُمن وأصحاب اليمين (كتاب اليمين) حيث الجنّة، أو يسوقه حيث الشؤم وأصحاب الشمال لأنّ النار تقع شمال الداخل لموقف الحساب، فتلتفّ ساقه الأخرويّة (مثيلُه) بساقه الدنيوية (التي هي هو) وهو أوّل تطبيقات (**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**)(التكوير:7)، ولهذا فيومئذٍ (**وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**)(الفجر:26) بل نسخته، نفسُه الأخرى التي ساقها، هي التي تُوثقه، تلك التي بثّها بما ختَم مِنْ صورته التي هي هو، وهذا يتجلّى عند الممات مباشرة، تماماً كنسخة الـ **RNA** من

الــ **DNA** في الخليّة، ساقان (شريطان) متــشابهان، يقترنـــان هنـــاك ويُدمَجان، ويقول ذاك القرين (**هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**)(قّ: 23) ليس لديـــه إلاّ ما بعثناه نُسخةً منّا لا أكثر ولا أقلّ، لذلك يقول سبحانه (**إِنَّـــا كُنَّـــا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)(الجاثــية: 29)، فــ(**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَـــاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ**)(القلم:42)، لأنّ "الساق" السائق، جهاز التوجيه، في الحياة الأخرى هي النسخة الثانية منّا "**وكما تكونوا يُولّى عليكم**"، هو الزّوج الثاني (**وَجَاءَتْ كُـــلُّ نَفْـــسٍ مَعَهَـــا سَـــائِقٌ وَشَهِيدٌ**)(قّ:21)، فيوم يُكشف عن هذه النسخة/ الساق التي تــسوقنا/ السائق، القرين، الزوج، والتـــي لا تُغـــادر صـــغيرةً ولا كبيـــرة إلاّ أحصتها، تكون هي التي تسوقنا إلى الجنّة أو النّار، فإنْ لمْ نكنْ مـــن الساجدين (أي الطائعين) لله في الدنيا، فمحالٌ أنْ نستطيع السجود لـــه في الآخرة، لأنّ "ساقنا" الثاني -الذي بعثناه نحن وبثثناه طوال الـــدنيا- متيبّسٌ ومبرمَجٌ ومختومٌ على عدم السجود وعـــدم معرفتـــه، ولـــيس السجود في قاموسه، مع العلم أنّ باب الجنّة (وسُمّي لدى الأوائل "باب مك") منخفض لا يُجتاز إلاّ ســـجودًا تمثـــيلاً بــــ(**ادْخُلُـــوا الْبَـــابَ سُجَّداً**)(النساء:154)، لذلك يقول سبحانه بعـــدها (**احْـــشُرُوا الَّـــذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**)(الصافات:22)، فالساق الـــسائق هو الزوج الذي نُحشر معه إلى أصحاب اليمـــين أو إلـــى أصـــحاب الشمال. وهناك رواية مروية عن ابن مسعود عن النبيّ (ص) تُؤكّـــد

تمثّل الأعمال والمعبودات (**فيكشف عند ذلك عن ساق فيخرُ كل من كان يسجد طائعًا** -أي في الدنيا- **ساجدًا ويبقى قومٌ ظهورهم كصياصيّ البقر يريدون السجود فلا يستطيعون**)[1] ، وأخرى عن أهل بيته (**"يوم يكشف عن ساق ويُدعون إلى السجود"** قال: **حجابٌ من نور يُكشف فيقع المؤمنون سجّدا و تُدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود**)[2] فكلاهما يُشيران إلى هذا المعنى.. هذا بشكلٍ موجز.

إنّ التركيبات ذات الألفاظ المشتركة[3] كما يُسمّونها (كمعظم ألفاظ القرآن) تنزع إلى تعدّد الوجوه في المعنى بحكم دورها الفضفاض الحمّال، لكنّها من جهةٍ أخرى بحكم ارتصافها في قبضة

---

[1]- الصدوق، **التوحيد**، ص346.

[2]- الفضل بن شاذان، **الإيضاح**، ص25.

[3]- مثال على تركيب يحوي ألفاظاً مشتركة، ونُسمّيها "مدى اللفظ": (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً)(النبأ:19)، فالفتح له معانٍ أو مدى، وللسماء معانٍ، فهلْ السماء هي السحاب كما قال تعالى (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)(قّ: 9) أم هي قمم الجبال المقدّسة كقوله تعالى (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)(القمر:11)، و(فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ)(البقرة:59)، و(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ)(النساء:153)، أمّ هو الغلاف الغازي للأرض كقوله (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)(الطارق:11)، تحصل فيه الثقوب فتكون أبواباً لتمرير النيازك والأشعة الكونية القاتلة، أم هي سماء معنويّة فتحت أبوابها لنزول الملائكة بالحساب، كلّها محتملات، لكنّ السياق يحتّم حقيقة علميّة متجانسة واحدة معه على الأقلّ.

نسيجها النظامي (البناء والسياق) فهي لا محالة تتـيحُ كـشْفَ قـصْدِ المُلْقي، سواءً كان منْ قصدِه تكثيرُ الوجوه المؤطّرة المناسِـبة لتغيّـر الواقع كما هو الحال في الآيات المفتوحة، أو قصدُه محدّدَ المعنى كما في الآيات المتشابهة المحتاجة تأويلاً واحداً فقط. أمّ دون ذلك، أيْ إنْ كان النصّ مُراوغاً مفتوحاً على مصراعيه على الدّوام، فـلا حاجـة لوجوده أساساً، ولا يُمكن أنْ يُصبح قنطرةً للإرشـاد ودلالـةً علـى الإفهام أو التواصل، وهو المسمّى ظنّي الدلالة.

كتابُ الله – ولزخارةِ اللّسان العربيّ – يعـجّ بالألفـاظ ذات المدى (المشتركة حمّالة المعاني المتعدّدة)، فالزعم بأنّ الحقيقة فيهـا هو ما يتبادر يجعل معظم استخدامات القرآن مجازاً، في حين أنّ هذا (التقعيد والتأصيل) قائمٌ على افتراضات وهميّة موغلـة فـي القـدم، غيبيّة، ظنّية، بأنّ الواضع الأوّل عيّن لفظ "شجرة" مثلاً للهيكل النباتي كحقيقة، واللباس للرداء والثوب، والذوق لحاسة اللـسان، والـسوءة للعورة الجسمية، فمن الذي أخبرهم بهذا؟ أليس في كلام الله واستعماله حجّة بأنّ حجّتهم ساقطة؟ أليس في المعـاجم اللغويـة نقـضٌ وفـي استخدامات البلغاء بيان؟ أليس السياق القرآني هو الذي يحدّد ويحكـم إذْ "القرآن يُفسّر بعضُه بعضاً" والسياق أحدُ هذا البعض؟ مَـنْ الـذي حكم بأنّ المحسوس هو الأصل وهـو الحقيقـة، وأنّ عـالم المعنـى والمعقول هو المجاز؟ إنّ المتأمّل لجذور الكلمات العربيّة يكاد يقطـع

بأنّ الأفعال (أوصاف الحركة) هي الأصل، وكلّ اسم له جذر حركي (فعل) يتّكئ عليه، افتح معاجم اللغة وسترى!

ليس في سياقات عبارات القرآن، على مستوى نجومه أو فقراته، أمرٌ متساوٍ متكافئ الاحتمال إلى الحدّ الذي تصوّروه، ليضطرّهم إلى وضع هذه القاعدة التي نسجوها ثُمّ تطبيقها، والقضايا المعرفيّة القرآنيّة ليس تكليفاً لتبرأ الذمّة بتغليب الظنّ وإجراء قاعدة الخلاص، بل لابدّ أنّ التركيب والسياق يكشفان تلك المعرفة والحقيقة، وإلاّ فالقرآن ليس فيه تبيان كلّ شيء، ولا هو بيانٌ للناس، فعليهم التخلّي عمّا اصطنعوه من قواعد "ذهبيّة" عكفوا عليها، ويعيدوا اكتشاف كلام ربّهم وفهمه، أو يتوقفوا ونتوقف جميعاً لنحيل علم ذلك إلى الرّاسخين في العلم القرآني والكونيّ. عموماً، كثيرةٌ هي القواعد التي أخرست ألفاظ القرآن أو أزالت إحكامه وعوّمت حقائقه بين اشتباهات، وليس قواعد الحقيقة والمجاز، وما عادة الحذف والتقدير والإبدال إلاّ أحدها أيضاً، مثال:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) (الإنسان:1) يقولُ البعضُ وما أكثر ما يقولون: "هل" هنا هي بمعنى "قد". والحال أنّه ما من عربيّ يستعمل أو يفهم "هل" بمعنى "قد"، والله سبحانه قد استعمل الحرف "قد" في مئات المواضع، فما كان أيسر استخدامه هنا! إنّ مجرّد الظنّ بالإبدال يُلغي فكرة إحكام القرآن،

ويجعل كلام الناس فوق كلام الله، ويجعل القرآن محكوماً لا حاكمـــا، ويجعل فكرة الإتيان بمثله بل بأحسن منه أمراً مستساغاً وارداً جدّاً، ويجعل القرآن احتمالياً ومبهماً بل وتعميةً لا بياناً، ويصيّرنا - بعدَ أنْ كنّا سلَماً للقرآن فقط - رهناءَ في أمسّ الحاجة لطبقةٍ من المفـــسّرين المتنازعين المتشاكسين يعلّموننا أيُّ "هلْ" في القرآن هي بمعنى "قــدْ" وأيّها بمعنى شيءٍ آخر، وبالنهاية تحويل آيات القـــرآن إلـــى لغـــزٍ لا يُدرك حلّه أحدُ المتدبّرين بل نهباً للآراء، وفي الأخير يُفـــضي بعـــدم قابليته للاستخدام بالمرّة لأنّنا سنسير إذ ذاك علـــى أرض ملغومـــة لا ندري أيُّ "هلْ" قد تنفجر في وجهنا بـــ "قدْ"، لينقلب السؤال المُـــصدّر بـــ (هل) إلى إثبات وتحقيق استهلّ بـــ (قـــد). ربّمـــا عُـــذرُ بعـــض المفسّرين الكرام أنّه ركن إلى رواية في هذا الشأن، لكنّه بـــدلاً مـــن التفكّر في الحقيقة وفي السرّ وفي مغزى الرواية، مسح حـــرفين مـــن كتاب الله وأخلّ بنظامه الصارم المحكم بجرّة قلم[1].

أمّا في المجازات: فلاحظ أثر الإكثار من شـــواهد الحقيقـــة والمجاز في التفسيرات، حتّى لإنّك سترى أنّ أكثر استعمالات القرآن لديهم مجازات، بل لو استطردت لكانت كلّها، ولاحظ كيـــف جنحـــتْ بالمفسّر عن استنطاق الآيات بالنطق بدلاً عنها، وإليك هذه الـــشواهد

---

[1]- محاولتنا كشف بعض سرّ هذه الآية، وهذه الـــ "هل" يحتاج إلى تأمّـــلٍ دقيـــق وتدبّر خاصّ بالآية، هو خارج موضوعنا، وله بحث آخر ضُـــمّن فـــي بحـــث : **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

من كتب تفسير مشهورة نُعرض عن ذكرها لأنّ مقصدنا النظام كلّه لا الأشخاص، فممّا يقولون:

- (**نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**)(العلق:16) الكاذب هو اللسان على الحقيقة ونسبة الكذب إلى الإنسان منْ مجاز وصْفِه بصفةِ بعْضِه، وتُجوِّز عن هذا المجاز بأن وُصفت الناصية فيكون مجازًا من مجاز.

التعليق: صار الأمرُ مجازاً في مجاز! والحقيقة العلمية اليوم أثبتت أنّه حقيقة في حقيقة، وأنّ منطقة الكذب هي في النّواصي تحديداً، في القشرة الأماميّة من الدماغ!

- (**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً**)(نوح:17) هي استعارة، أيْ أنشأكم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء!

التعليق: حشْر هذه الاستعارات هو الذي حجب حقيقة خلق البشر عن أذهاننا، فالأصول البشريّة كما قال القرآن فعْلاً نبتوا من الأرض نباتا!

- (**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ**)(البقرة: 19) مجاز، وإنما هم جعلوا بعض أناملهم!

التعليق: بهذا لا تبقى لفظة إلاّ وتحتاج كلمة "بعض" قبلها: تكلّمت ببعض لساني، مضغت ببعض أسناني، ركلتُ ببعض قدمي، صافحت ببعض يدي، مشيتُ ببعض رجلي، نظرتُ ببعض عيني (إذْ البياض لا يُرى به)، هذا هو الواقع، والآلاف غيرها، حاول أنْ تختبره فتتأكّد بنفسك!

الغريب أنّ القرآن كرّر "الحقيقة" عن جعْل الأصابع في الآذان مرّتين ولم يَطْرح اقتراحهم أبداً، ومع ذلك لمْ يلتفتوا، في البقرة-19، ونوح-7، لأنّ الآذان وعمقها الطبيعيّ هي التي حدّت الأصابع، لا أنّهم مخيّرون في جعل بعض الأصابع أو أكثر، فهم لمْ يختاروا أنْ يجعلوا بعض أصابعهم، بل "جعلوا أصابعهم" وانتهت حيث ينتهي عمق الأذن ليصمّها عن السمع، وحين ذكر القرآن العضّ قال (**عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ**)(آل عمران: 119) ولمْ يقل الأصابع لأنّ المرء بالخيار أنْ يعضّ أين شاء، لكنّ الغيظ يجعل المرء يعضّ أنامله، والسؤال: لماذا لمْ يقل "بعض أناملهم" ما دام العضّ يصيب مقداراً من الأنملة أيضاً؟ للسبب الآنف نفسه، هو محدوديّة سمك السنّ أو الضرس، فالحكم للضرس لا للأنامل، كما كان هناك الحكم للإذن وعمق صيوانها لا للإصبع، ولو قال القرآن كما اقترحوا لاحتمل السامع العربيّ أنّ آذانهم لمْ تُسدّ، فتأمّل الدقة والحقيقة، وأين هي من المجازات المتطشّرة بالمجان؟!

- (**ادْخُلُوا مِصْرَ**)(يوسف: 99) مجاز، فمعلوم أنّهم لم يستوعبوها!

التعليق: لا يدري القارئ العربيّ أيبكي أم يضحك، الآية بنفسها قالت "**ادخلوا**" ولمْ تقل "استوعبوا"، فمتى كان الدخول استيعاباً وملئاً؟! هذا المجاز سيحكمنا حتّى مع دخول الحمّام فما من أحد يستوعب الحمّام فيملأه كما يملأ القميصَ والسروال، إلاّ إذا كان صاحبُه بالوناً ينتفخ ليملأ الظروف!

- (**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً**)(مريم:15) تجوّزٌ، فـ "**يوم يموت**" أي يوم مات، مِنْ وضع المضارع موضع الماضي، كقوله تعالى "كن فيكون" أيْ فكان!

التعليق: ما أعجب هذا! هكذا حُطّمت آيتان في مثالٍ واحد، فاختلّ اللّسان العربيّ، والنظام القرآني، والنّظام الربّاني، جميعاً، برشقةٍ واحدةٍ، الله سبحانه يقول "يموت" وكان يستطيع قول "مات"، فيُصلّحون قوله! هو يريد أنْ يُخبرهم أنّ يحيى (ع) قُتِل ولمْ يمُت (**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً**)(آل عمران: 169)، ولكنّه سيموت مستقبلاً لأنّ (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**)(آل عمران: 185) و(**لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى**)(الدخان: 56) لذلك قيل "**يموت**" لا "مات"، أمّا "**فيكون**" لأنّ نظام الخلق مازال يكون ويتطوّر، ولو قال "كُنْ فكان" لكان الأمر والخلقُ واحداً ولمْ يتدرَّج

الخلقُ ولجمد الكون على ما كان منذ انبعاثه إلـــى الآن بـــلا توسّـــع وتطوّر وأُلغي مفهوم الزمن بل ولما جاء خلق الإنسان متـــأخّراً فـــي طريق هذا التكوين الذي يمضي بـــ "كن" الأولى وما يـــزال "يكـــون ويكون ويكون"، فأين ما يقوله القرآن من حقيقة وما زعموه تجوّزاً؟!

- **(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ)**(النساء: 2) مجاز، أيْ الذين كانوا يتـــامى، فلا يُتْمَ بعد البلوغ.

التعليق: ظرف الخطاب الآن وهم ما يزالون يتامى، والأمـــر بالإيتاء مستقبليّ، فأين المجاز؟! وآية النساء-6 التي تليهـــا وضّـــحت ذلك جلياً **(وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا)**!

- **(الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى)**(البقرة: 178) مجاز ويعني القصاص فـــيمن سيؤولون قتلى، أي يُقتل من القتلى!

التعليق: إنّ تفسير آية القصاص هي بحدّ ذاتها معضلة لـــدى المفسّرين، وهذا أحدُ أسبابها وبلوائها، لكن السؤال البديهيّ جدّاً جـــدّاً: هل القصاص للقتيل الآن، أو لمن سيؤول قتيلاً؟! وهل كُتِـــبَ الغُـــسل للميّت أو فيمن سيؤول ميّتاً، إذن فلْنُغسّلْ جميع النّاس لأنّهم سيموتون يوماً!

- **(أَعْصِرُ خَمْراً)**(يوسف: 36) أي أعصر عنباً، فالخمر مجاز!

التعليق: لو تتبّعوا "مدى" لفظة "خمر" في لهجات عربيّة نزل القرآن بها لرأوا أنّه العنب نفسه في مرحلةٍ فاقت نضجه، فلا داعي للمجاز من أصل إلاّ بنكران وجود لهجات عربيّة في القرآن، والظنّ بأنّ القرآن كلّه بلهجة قريش خاصّة!

- (**وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً**)(نوح: 27) أي سيؤول كافراً!

التعليق: فكأنه نظر إلى الولادة أنّها انفصال الولد جنيناً أي الوضْع، القرآن لمْ يقل "يضعوا كافرًا" بل يلدوا التي تعني بروز الجيل الآخر، بدليل أننا نسأل الكبير من الذي ولدك؟ وقال نوح مستغفراً "**ولوالديّ**"، بل أنّ القضيّة أعمق بكثير فإنّ الجيل الفاجر الذي عاصر نوحاً سيُورّث وعلى المستوى الجينيّ قبل التربوي قابليّة الفجور في الجيل التالي، وهذا أمرٌ ميدانه الكشف العلميّ القابع في تخوم هذا اللفظ.

- (**وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)(آل عمران: 102) مجاز، فالنهي عن الموت نفسه لا يصحّ لأنه خارج التكليف، لكنّه تُجوّز به عمّا يُقارنه منْ كفْرٍ، فكأنه قال "ولا تكفروا عند موتكم"!

التعليق: الله قادر أنْ يقول هذا لو أراد، فقد ذكر حالة "الموت وهم كفّار" أربع مرّات في كتابه، ولا ندري، إنْ كان القارئ يُلاحظ الإخلال بالآيات بمثل هذا التبديل في الكلام أم لا، الآية تقول: عشْ

مسلماً لتضمن موتك مسلماً، فاحرز ألاّ تموت إلاّ وأنت مسلم، ولمْ تقل "لا تكفر عند موتك"!، الآية تتكلّم عن الحياة كلّها، صيّروها لحظة نهاية الحياة، فشتّان!

أمّا التقدير والحذف: فسنضرب مثالاً واحداً من آية واحدة:

- **(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ..)**(الرعد: 31).

ففي تفسير الطباطبائي نجد[1]: فجزاء "لو" المحذوف هو نحو من قولنا: ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله، والمعنى ولو فرض أنّ قرآنا مِن شأنه أنّه تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أنْ يهتدوا به إلا أن يشاء الله بل الأمر كله لله ليس شيء منه لغيره حتى يتوهم متوهّم أنه لو أنزلت آية عظيمة هائلة مدهشة أمكنها أن تهديهم، لا، بل الأمر لله جميعا و الهداية راجعة إلى مشيته. وعلى هذا فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: **(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)**(الأنعام: 111).

---

[1]- الطباطبائي، **تفسير الميزان**، مج11، ص359.

وقيل: إنّ جزاء "لو" المحذوف نحو من قولنا: لكان ذلك هــذا القرآن، والمراد بيان عظم شأن القرآن وبلوغه الغاية القصوى في قوة البيان ونفوذ الأمر وجهالة الكفار حيث أعرضوا عنه واقترحوا آيــة غيره.

والمعنى: أنّ القرآن في رفعة القدر وعظمة الشأن بحيث لــو فرض أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت بــه الأرض أو كلّــم بــه الموتى لكان ذلك هذا القرآن، لكن الله لم ينزل قرآنا كــذلك، فالآيــة بوجه نظير قوله: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبــل لرأيتــه خاشــعا متصدعا من خشية الله"– الحشر: 21.

وقيل: إن المعنى لو أنّ قرآنا (أي القرآن وتنكيــره للتعظــيم) فُعل به ذلك، لفعل، ولكن لم يفعل الله سبحانه به ذلك، بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده.

وقال الشوكاني: وقد اختلف في جواب لو مــاذا هــو؟ فقــال الفراء: هو محذوف، وتقديره: لكان هذا القرآن، وروي عنه أنه قــال: إن الجواب لكفروا بالرحمن: أي لو فعل بهم هذا لكفروا بــالرحمن، وقيل جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله " ما كــانوا ليؤمنــوا إلا أن يشاء الله " وقيل الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتــأخير: أي وهــم

يكفرون بالرحمن لو أن قرآناً إلى آخره، وكثيراً ما تحـذف العـرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام[1].

ويقول محيي الدين الدرويش: اختلف المعربون والمفـسرون في تقديره وقد قدّرناه في الأعراب: "لما آمنوا"، واختار الزمخـشري هذا التقدير ولكنه جعله مرجوحاً وقدّر الأرجح بقولـه "لكـان هـذا القرآن"، وابن هشام قال بعد: (ولو أنّ قرآنا) الآية، أي "لما آمنوا بـه" بدليل قوله "وهم يكفرون بالرحمن"، والنحويون يقدّرون: "لكـان هـذا القرآن"، ثمّ يُزيّنون كلامهم بأنّ هذا الحذف من البلاغة![2].

والمتدبر يرى إن كانت الآية تسمح بهذين التقـديرين علـى الأقل، فمشكلة حقيقيّة، لأنّ التقدير الأوّل يفترض أن القرآن لا تُـسيّر به الجبال، والتقدير الثاني يفترض أنّه تُسير به، فما بينهما من افتراق عقائديّ كالذي بين الشرق والغرب. فهل من البلاغة كما زعمـوا أن يحذف القرآن جملةً تحتمل تقديرين يُعاكس أحدهما الآخر، ويختلـف في تقديرهما أئمة العربية وأساطينها و"المُفسّرون!"، وكلّ واحد يُعقّب بقوله "وما قدّرتُه أظهر"؟! فأين "البلاغة" إذا لم "يبلغهم" هـم أنفـسهم المعنى المرادُ من بين النقيضين؟! وإذا كانت البلاغة إيصال المعنـى بأدلّ عبارة وأوجزها، فهل تعقيد الأمور وتشويشها بلاغة؟!

1- الشوكاني، **فتح القدير**، ج4، سورة الرعد.

2- محي الدين الدرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، ج5، ص124.

ولأنّه كالبنيان يقطر بعضه بعضاً، ولأنّ القرآن نظام والإخلال بأحده إخلال بكلّه، فإنّ سوء الفهم توالى ليقع أيضاً في "**أَفَلَمْ يَايْئَس**"، وهذا طبيعيّ لأنّه نظام مرتبط، فقالوا هي بمعنى "أفلمْ يعلم" ليحشرونا في الترادف مرّةً أخرى، وأتوا بشاهد من بيت شعر:

"أقول لهم بالشّعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابنُ فارس زهدم"

وقالوا "يئس" أيضاً بمعنى "علم" في لغة النّخع.

وواصلوا: (إنّ الأحسن أن يكون قوله: " **بَلْ لِلَّهِ الأمْرُ جَمِيعاً**"، معطوفًا على محذوف والتقدير: ليس لك من الأمر شيء بل الأمر لله جميعا)، فهناك تقديراتٌ إذاً تتفاوت بالحسن، والأحسن هنا تقدير جملةٍ هذا طولها!!

فـ: **(بَلْ لِلَّهِ الأمْرُ جَمِيعاً)** أصحاب التقدير الأول فسّروها: أنّ الله مع هذا قادرٌ على الإتيان بما اقترحوه متعنّتين، وتعليقنا أنّ هذا رأيٌ يُسلّمُ أنّ الكافرين اقترحوا أشياء بتعنّت، لكنّهم لا يُشيرون إلى الآية التي تنصّ على هذا الاقتراح، وهي بين أيديهم!

وأصحاب التقدير الثاني، يقولون: ومع أنّ هذا القرآن هو هذا شأنه، لكنّ إيمان الكافرين مسألةٌ راجعة لله، لا للآيات مهما بلغت إعجازاً، فالقرآن لنْ ينفعهم إذا كان الله أغواهم!

فها أنت ترى الانشعاب بين التقديرين؛ تقديرٍ يرى القرآن هذا شأنه لكنْ لن ينفع الكافر، وتقديرٍ يرى خلوَّ القرآن من هذه القدرة والخصيصة، ولكنّ الله قادر على جعله كذلك. ومع تضارب هاتيْن الوجهتيْن فالآية التي تذهب بالبلغاء شرقاً وغرباً في نفس الحين .. هي بليغة!! فما هو الحلّ إذاً؟

الحلّ يكمن أوّلاً في التخلّي عن معوّقات الفهم، وأوّلها هذا النظام السائد المُصرّ على وجود محذوفات في النصّ القرآنيّ يُراد تقديرها، ويتنازع أذكى فطاحل علمائنا في إحراز التقدير المناسب، ولا يتّفقون؛ والمُصرّ على وجود ترادف بين كلمات القرآن، فصارت يئس بمعنى علم؛ والمصرّ على مساواة آيات الله، فصارت آية **(لو أنّ قرآناً)** إمّا تعني آية **(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ)**(الحشر: 21) أو تعني **(ولو أنّنا نزلنا إليهم الملائكة .. ما كانوا ليؤمنوا)**!!؛ والمصرّ على تجزئة كلام الله، وتفريقه عن نسيجه؛ والمصرّ على تسليم النّحاة واللّغويين والكلاميّين مقاليد أمور القرآن ليفكّكوا الآية كما يشاءون ويُعيدوا صياغتها وإعرابها لنا حسب مذاهبهم الاعتقاديّة والسياسية والنحويّة. ثمّ بعد ذلك النظر إلى آيات الله كنظام لا يُفهم إلاّ بالخضوع له، نظام حيويّ متفاعل، بلسان عربيّ مبين، واكتشاف السياق القرآني علميّاً كان أو اجتماعيّاً، لوضع الآية في إطار خطابها.

حسناً الآن، فما هو موضوع سورة الرعد؟

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * .. كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَايْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ* ... وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا

يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)(الرعد: 27-39) وسبق في السورة: **(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)**(الرعد:7)

فما هو الهادي هنا؟ هو الوسيلة المناسبة لهدايتهم، أو قلْ الوسيلة المقدّرة لهدايتهم، فبعضُ الأمم السابقة معجزاتٌ ضخمة، والبعض لا، وهؤلاء جُعل لهم الهادي القرآن/ الكتاب لا غير كما بيّن ذاك قوله **(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً)**(الأعراف:52)، و**(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً .. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)**(الزمر:23)، فلا هادي لهم إلاّ هذا الكتاب ومُحيت المعجزات الماديّة لقوله في السياق "**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**" معقبا على عدم إمكانية إتيان الرسول البشري بآية إلا بإذن الله وأنّ لكل أجل كتاب. وقد انقضى أجَل طرائق الهداية السابقة وأُغلقَ ذلك الكتاب بكلّ ما فيه من توابع بما فيها "الاستئصال"، لأنّ المعجزة الماديّة الحسية قرينة العذاب الاستئصالي مع تحقق شروطه، وجاء أوان كتابٍ (برنامج) آخر بتخطيطٍ آخر، وليس لهذه الآية ارتباط بالنسخ المتوهّم في كتاب الله، لأنّ الصيغة المضارعة "**يمحو، ويثبت**" تؤكّد أنّ المشيئة ما زالت تعمل بين البدائل في عالَم الخلق، والقرآن (الذي هو من عالَم الأمر) لو كان كذلك لاستدعى توارد عملية المحو والإثبات فيه إلى اليوم، ولا معنى لإيقاف النسخ فيه بزمن دون آخر.

فهذه السورة تتكلم عن آيات ودلائل عقلية بدل المعاجز الحسّية، وتحكي أنّ هذا الكتاب/ القرآن جاء بهذه الأدلة من أوّلها (**المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**)(الرعد:1) إلى آخر آية: (**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**)(الرعد:43)، كلّها أدلة عقلية لإثبات هُدى الكتاب وأنّه رسالة من الله، بشهادة علمية وأخرى تاريخية. لكنهم أصروا على الحسّيات، فطلبوا شهادة الموتى بدلاً من أهل الكتاب (الآيات 36، 39)، وتحريك الجبال ونسفها بدلاً من رسوّها (الآية3)، وتقطيع الأرض بدلاً من آيات قِطَع الأرض المتجاورات (الآية4). وهذا يُبيّن تأثر تلك المجموعات بأسلافهم من أهل الكتاب الذين تعاملوا حسّياً مع الأنبياء، لاسيّما (**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**)(آل عمران:183).

الحلّ، لمسح فكرة **المحذوفات والتقديرات**. لنقرّب الصورة بمثال:

لو قال الملكُ للجنديّ غاضباً: "لو تبيّنَ كذِبُك" وسكت، فمن ذا العبقريّ الفذّ الذي يستطيع أنْ يُقدّر بقيّة الجملة؟! فلعلّها "سأضربُ عنقك"، أو "سأخفض راتبك"، أو "سأطردك من الجندية"، أو "فلن أسامحك"، أو "فسوف تُسجن" "تُنفى" .. الخ .. وأيّ ادّعاء بأنّ التقدير هو هذا دون

ذاك هو افتراءٌ على الملِك وتقوّلٌ، وإنّ تلك التقديرات التي تنازَع فيها المفسّرون فتباينت وتضاربت، والتي تفترض وجود مثل هذه الحالة في الصياغة القرآنية، بإمكاننا أنْ نعدّها أيضاً "افتراءً على الله". فلا يحسن إذاً ترك الجملة فضفاضة قابلةً للتقديرات المتغايرة أو المتعاكسة، فهذا إضلالٌ .. القرآنُ نزيهٌ عنه، للبلاغة نفسها، والتي هي ثابتة لـ "البلاغ المبين"،"الكتاب المُبين"، "قرآن مُبين".

فعليه، لو قال الملكُ للجندي: "لو تبيّن كذبُك، سأضربُ عنقَك"، فردّ عليه الجندي: "لوْ .. تبيّن كذبي" بتفخيم "لو"، فهل نحن بحاجة لتقدير جواب جملة الجندي هذه؟ أعني جواب "لو" المحذوف؟ ربّما يُجاب: نعم، إذّ التتمّةُ هنا واضحة، وواحدة، وهي "فاضربْ عنقي". والقرآن إنّما يحذف الواضح مثل هذا.

هذا رأيٌ يُناسبُنا ويكفينا، لكنّه مع ذلك يتشبّه بالصواب، ففي مثل هذا المثال: ما أدرانا أنّ الجنديّ لمْ يُقدّر في ذهنه "فافعلْ ما شئت"، أو "يجوز لك أنْ تضرب عنقي"، أو "عندها أنا الذي سأقدّم لك عنقي لتضربها" أو غيره؟ لا شيء يمنعنا من العودة إلى دائرة احتمال التقديرات وتخمينها لإصابة الحقيقة الواقعة!

الحقيقة، أنّ الجنديّ، كحالِنا في لحظةِ أمثال هذا الخطاب، لا نقدّر جواباً ولا نتخيّل جواباً بالمرّة، لأنّ همّنا هو نفي جملة الشرط بهذا الأسلوب فقط، ولا يهمّنا ما بعده ولا الوقوف للتفكير فيه لأنّ

الوصول إلى محطته مستحيل، فعبارة الجندي "لوْ .. تبيّن كذبي" دالّة لوحدها أنّ الجندي إنّما يقول بثقة "يمتنع أنْ يتبيّن هذا الكذب، لأنّـــي لستُ بكاذب، فلا داعي للتهديد"، وليس في ذهنه جوابٌ لجملته تلـــك لنأتي ونقدِّره. الآية هنا هي من هذا الصنف.

ففي الآية، لا ندري لمَ لمْ يرَ المفسِّرون الفئات؟:

- "الذين آمنوا" ما زالوا متعلّقين بالكافرين، ويتمنون لهم المعجـــزات، بدليل مخاطبة الله إيّاهم في الآية نفسها بـــ " **أَفَلَمْ يَايْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا**".

- الكافرون "**يكفرون بالرحمن**"، ويطالبون بالآيات، وينفون الرســـالة ويسخرون من الكتاب الهادي لهم، فأعاد الله سبحانه قولهم أو أمنيـــة البعض بعينه، مستنكراً، الذي بعد "لو"، الذي تمنّاه أيضاً "الذين آمنوا" وليس "المؤمنون"، ففرقٌ بينهما.

فالكافرون يقولون عن آيات القرآن: أهذه آيات ومعجـــزات؟ (**لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا**)(الأنفال: 31)! هلاّ كان هذا القـــرآن قرآنـــاً (مقروءاً) إذا قُرئ سُيّرت به الجبال، أو قُطّعت به الأرض أو كُلّم بـــه الموتى! ولم يضع سبحانه تكملةً بعد "هلاّ كان قرآناً/ لو أنّ قرآناً" لأنّ بعضهم ربما يُفكّر: "ومع ذلك لن نؤمن"، والبعض: "ربما نبـــدأ بجـــدّ عندها في التفكير بالإيمان بك"، والبعض: "عندها فعـــلاً ســـنؤمن"، لا يهمّ كلّ تلك التفرّعات والاحتمالات والأجوبة المحتملة ذهنياً بعـــددهم

وبتنوّع نفسيّاتهم، فلذلك حُذفت لأنها متفقة في القول: أنّ القرآن هــذا ليس هادياً لوحده، وهو ليس بمعجزة إلا إذا صنع شيئاً خارقاً نلمــسه ونُعاينُه، لا حججاً عقلية بل حسّية، هم متفقون "أنّنا نريد قرآنـــاً غيــر هذا يفعل الأعاجيب"، وهذا بالتمام ما تقوم السورة كلها بنفيه مِن أولها إلى آخرها، لارتباطه بتغيّر "الهادي" ضمن قانون المحو والإثبات في أمّ الكتاب. وما دام "**لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**" ، والقرآن هو فقــط الهـــادي الآن، وهؤلاء أعداء الرحمن يقولون على "هاديهم" كتابه هذا الكلام الهازئ، فــ "**أَفَلَمْ يَايْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا**" مِن وهْم هداية الناس جميعـــاً، فهنـــاك أناسٌ "يكفرون بالرّحمن" في كلّ زمن مهما كان الهـــادي المـــستعمل، ولن يؤمنوا مهما حصل، المشيئة هكذا اقتضت في كل زمان وجـــود كفار بالرّحمن. ولن يكون زمانٌ فيه الناس جميعاً مهتدين حتّـــى فـــي آخر الزمان.

فعلى هذا، "**بل لله الأمر جميعاً**"، تُضربُ عن ماذا؟ تُـــضرب عن مقلوبها بالتمام، وتقديم "**الله**" للاختصاص، أي ليس أمـــر القـــرآن (الآية الهادية) للرسول الذي هو مجرّد نذير، ليُقتَـــرح عليـــه تبـــديل نوعيّة الآية، ولا للذين آمنوا ليتمنّوه، ولا للذين كفروا ليُطالبوا به، "**بل لله الأمر جميعاً**"، و"**جميعاً**" دلّتنا على نفي تلك الأطراف كلّها. فهـــي إضراب عن قول الذين كفروا واقتراحهم الذي تسرّب لنفوس "الـــذين آمنوا"، إذ "الذين كفروا" يأمرون محمّداً (ص) فـــي الحقيقـــة بتبـــديل

القرآن (**ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**)(يونس:15)، بمواصفات هم يطلبونها، قرآن غير هذا يُتلى فيخرق النواميس ويحرّك الطبيعة كالسحْر، وربما ليتبجّحوا بعدها أيضاً بنكايةٍ أخرى أنّه ساحر، كما قالوا له ولمن قبله حين حدوث المعجزات (**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**)(الأعراف:132).

فـ "**الأمر**" ليس لـ "الذين كفروا" في تحديد نوع الهادي المناسب، والآيات المناسبة، كما أنّه ليس للرسول أيضاً أنْ يجيء بغير ما كُلّف لأنّه "**إنّما أنت منذر**" فقط، وليس الأمر حسب التمنّي الساذج من بعض "**الذين آمنوا**"، "**بل لله الأمر جميعاً**" بلا مشاركة من أحد ولا اقتراح، وهذا يوضّح لنا موقع "**بل**"، الرافضة لاقتراحهم، واختصاص الأمر بالله –لتقديم لفظة "**لله**"– في تحديد نوعية "الهادي"، كما كان هو وحده الله سبحانه الذي حدّد "المنذر" ومهامه وحدوده (**وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)(العنكبوت:50) فبعضُ المفسّرين ظنوا أنّ المقصود بعبارة "**إنّما الآيات عند الله**" أيْ المعجزات يأتي بها الله، ليُساووا بهذه الآية مع أشباهها كما يظنون، بل العبارة تردّ على طلب المعاندين، ولا يُمكن أنْ تردّ بأنّ المعجزات عند الله، فهم يعرفون هذا والكل يعرف هذا وهم سألوا الآية الحسّية من ربّه لا منه، فأجاب كما هو موضوعنا، أنّ الآيات

ونوعيّتها المناسبة لكم من اختصاص الله وحده، لا من اقتراحكم ولا من اشتهائي، وشاء هو سبحانه أنْ تكون هكذا متلوّة، ولهذا لمْ يقل "**من عند الله**" بل "**عند الله**" فهي مسألة علم وقرار لا إنزال ومجيء، وتحاكي "**وعنده أم الكتاب**"، فمصدر القرار المناسب هناك عنده، لا هنا عندكم وعندي.

فجملة "**ولو أنّ قرآناً**" على خلاف ما تنازع فيها المفسّرون وقلبوها، هي عبارة الكفر التي قالها المعاندون بعد سماع التلاوة "**لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**" في سياق الآية السابقة، أعادها الله بلا جواب لأنّها منزوعة الجواب أصلاً، ولا يُمكن تقديره لتنوّعه في الأذهان، ولأنّ مضمونها أوّلاً منهم ثمّ نفيها ثانياً منه سبحانه بحدّ ذاته هو المقصود.

ولو أردنا أن ندَع للقارئ أمثلةً أخرى يلتمسها بنفسه، فقوله سبحانه: (**وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**)(الزخرف:33)، فكلّ المفسّرين قلبوها وقرأوها بالمعكوس ثمّ تنازعوا في معناها.

وقوله سبحانه: (**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**)(الأعراف:20)، قلبوها أيضاً وجعلوا "**أو**" بمعنى "و"، وأردفوها مساوين بقوله (**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى**

شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)(طه:120)، وقدّروا فيها عبـارات غيـر موجودة![1].

إذن، بتخلية العبارة القرآنيّة من الإسقاطات الذهنيّـة عليهـا (سواءً المأخوذة بدون شعورنا من المـأثور التـوراتي، أو الثقـافي التاريخيّ النسبيّ الصحيح والخاطئ على السواء)، قدْ نـسنح لهـا أنْ يبزغ معناها بدون اغتصاب أو مصادرة أو انتزاع قيصريّ، لأنّا دأبْنا دائماً متى ما قرأنا آية أنْ نُضفي عليها إسباغاتنا العجولـة، نـاظرين إليها بأعيننا القديمة، فلو قرأنا:(**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَـيْلاً مِـنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**)(الإسراء:1)، لذهب بالُنا بالتسليم الذي لا رجعة فيه، إلى فلسطين، فما أدرانا؟ ومن الذي حكم؟ ولكـان دليلُنا أنّ هذا أمرٌ يعرفُه كلُّ أحد! وكذا قوله تعالى: (**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِـي الْـأَرْضِ مَـرَّتَيْنِ وَلَـتَعْلُنَّ عُلُـوّاً كَبِيراً**)(الإسراء:4)، لقضينا أنّ إفسادهم الأوّل كان في فلسطين، لأنّـا حكّمْنا إطارنا المعرفيّ الآنيّ المتأثر بأحداث المنطقـة سياسـياً منـذ قرنٍ، وما لمْلمْناه من تفسيرات وانتحالات توراتيّة، فما أدرانا؟ وهـل كانت على عصر النبيّ (ص) بهذا المعنى حين لا وجود في الـذاكرة الإسلاميّة آنذاك لبني إسرائيل في فلسطين بتاتاً؟! وكـذا فـي قولـه

[1]– قراءة هذه الآيات صحيحة، على عكس ما تنازعوا، أنظر بحث: **وعصى آدم،** الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

تعالى: (**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**)(الأعراف:22)، نقول بغير رجوعٍ للقرآن: شجرة التفاح، الحنطة، التين، العنب، الكافور، ولعلّه "الكيوي".. فما أدرانا؟ وفي قوله تعالى: (**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**)(يوسف:21)، قلنا: هي مصر التي عاصمتها القاهرة، فما أدرانا، وهي لمْ تُسمَّ "مصر" كاسمِ علَم إلاّ في عهد الفتوحات الإسلاميّة؟! وفي قوله تعالى: (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا**)(الأعراف:175)، نُسارع بالقول أنّه شخصيّة توراتيّة تُدعى "بلعام بن باعورا"، فما أدرانا، ومن الذي حكم؟ أقال كتابُ الله هذا؟ هل السياق يُساعدُه؟ لمْ نهتَم! وفي قوله تعالى: (**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**)(الصافات:107) قلنا: كبش عظيم، فما أدرانا؟ وأيضاً: (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً**)(المائدة:27) قلنا: قابيل وهابيل أبناء آدم، أحدهما قرّب خروفاً سميناً والآخر زرْعاً رديئاً، فما أدرانا؟ وأيضاً: (**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ* رُدُّوهَا عَلَيَّ**...)(ص: 32،33)، قلنا الشمس رُدّتْ لسليمان، فنتساءل: سليمان يخاطبُ مَن بضمير الجمع في قوله "ردّوها"؟! وكذا قوله تعالى: (**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**)(المائدة:21) أجبنا ببداهة: هي فلسطين كتبها اللهُ لليهود وهي مهد الأنبياء! إذن فنحنُ مَن باع فلسطين!

إنّ هذه الإسباغات الذهنيّة المستعجلة المنعكسة من عبوديّتنا وتسليمنا الاعتقاديّ هي التي تصدّنا عن الحقيقة الإلهيّة (**وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**)(النمل:43)، وهي التي تجعل القرآن لدينا عصيّاً عن الحلّ، فإنّ مجرّد تثبيت قيمةٍ معيّنة خاطئة لمتغيّر (مجهول) فيه، تُصيّر بقيّة معادلاته مستحيلة الحلّ، فنُجرجر القرآن ليتناقض مع نفسه ومع التاريخ ومع العلم، لأنّنا بتغييرنا بعض لبناته نسفنا بنائيّة القرآن كلّها، لماذا؟ لأنّه منسجمٌ كمعزوفة، يشهد بعضُه على بعض. ولتقريب الصورة حاول أنْ تجعل حرف اللام واواً في (لأنّنا) في السطرين السابقين لترى كيف يختلّ البناء، بل لاحظ أنّنا – كما في السؤال أعلاه – بمجرّد أنْ نسلّم أنّ الأرض المقدّسة هي فلسطين لا غيرها، فعلينا تبعاً أنْ نقرأ آيات الأنبياء كلّها حسب هذه الجغرافيا المفترضة، ونقيس التوراة ومعالمها بهذه المسطرة، فينتج أرثٌ دينيّ ومنظورٌ تاريخيّ وبحوث علميّة وتنقيبات آثاريّة وصراعٌ جيوسياسي يتناسب مع هذا الفهم، كلمةٌ واحدة تقلب الأمر رأساً على عقب، مجرّد تفسير كلمة، لذلك توعّد النبيّ (ص) بتبوّأ المقاعد من النّار على مستوى التفسير قبل التأويل، لخطر تفسير الكلمات القرآنيّة بمعنى محدّد خاطئ، فإنّها كالخليّة السرطانيّة تسري إلى النظام الحيويّ كلّه.

إنّ الغاية من هذا التطهّر الفكريّ، أنْ تعود الأمّة في سلْم مع ربّها، مع كلامه، مع الكون، مع التاريخ، ومع نفسها، في سلمٍ مع الحقائق والمفاهيم الصحيحة. تصطلح مع تراثها الصحيح وتُقاطع الفاسد منه، فإنّ أمّتنا صارتْ شيَعاً وأحزاباً حينما حكّمنا غير القرآن، حينما نطّق الرجالُ القرآن بغير صوته، فوجد كلّ فريق بغيته من القرآن أنّه الفرقة النّاجية، والقرآن لا يقرّ بالفرقة أساساً لـ (**إنَّ هَذِهِ أمَّتُكُمْ أمَّةً وَاحِدَةً وَأنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**)(الأنبياء:92)، فكيف بالنّاجية! لكنّنا حين نسكت .. جميعاً، ونعود لنصغي، ننصت، نكتشف، ما يقوله كتاب الله، فقدْ يُهيّأ لنا فتْحُ (**يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**)(البقرة:208) فيسكتُ الصراع والتشرذم والهراء.

القاعدة الثانية: الإلمام بعلوم القرآن

بعد تنحية المعوّقات جانباً، والتجرّد لكتاب الله من الرسوم، فأوّل ما على الباحث أنْ يلمّ بمضمون القرآن العظيم وملامحه، ويتنفّس جوّه، ويعرف سوَره ومعاني كلماته وأحكامه الأصليّة، ويكون مطّلعاً على عموم علوم القرآن، ونعني بعموم علوم القرآن، أنْ يجتهد الباحث في معرفة معاني ألفاظ القرآن، واستخداماتها في لهجات العرب الصحيحة والمعاجم، ومعرفة أحكام الله الثابتة فيه لئلا يتجاوزها جهلاً، ويُدرك منطق الكلام الذي يحوي الخاصّ والعام

والمطلق والمقيّد، ومفهوم الناسخ والمنسوخ وعمله فيها وفقَ ما يقوله القرآن لا وفق ما اختلفوا فيه، ويلمّ بمناسبات نزول الآيات العمليّة ليرى تفاعلها الواقعي الأوّل لاسيّما آيات الأحداث والجدل المجتمعي، ويعرف مكّيها ومدنيّها، وعلم القراءات في الرّسم، وعلم السيرة والأحاديث الصحيحة المفيدة المبيّنة لما أُجمل وغمض إنْ استُدعي. والزبدة النافعة "الصحيحة" والمختصرة لما كتبه علماء المسلمين الأجلاء، لا للتسليم به بل للانتفاع بنافعه، ليكون في أجواء القرآن وفي فلكه لا غريباً عنه ولا دخيلاً عنيفاً عليه، فهذا مدخله الأوّل لتناول القرآن التناول الصحيح.

على أنّ هذه المعرفة ينبغي أنْ تتحصّل بلا سموم وقيود وإصر على العقول، بل بقناعة حرّة، لا بالهوى. ونُثبت هنا قناعتُنا الموجزة في بعض هذه المقدّمات، لنعتق النصّ القرآني من أغلالها:

1 - علم الحديث والرجال:

فمع تسليمنا بأثره الجبّار في تصفية الروايات المكذوبة والمدسوسة، ومع حفظنا لمقام أصحابه وجهودهم المباركة والمثابة، إلاّ أنّه ليس أكفأ جهاز، وليس هو النظام الوحيد لتمييز الصحيح من السقيم من المرويّات، لأنّه مهما دقّ فلن يُصبح كجهاز المناعة لدى الإنسان، ذاك الذي مع كفاءته الطبيعيّة فإنّه أحياناً يسمح للفيروسات بالنفاذ، وأحياناً أخرى يدرأ ما يصلح من الدخول بل ويهاجم الخلايا

السليمة أيضاً، فقطعاً قد درأنا عنّا الكثير من الروايات الفاسدة بمصفاة علم الرجال وعلوم الرواية لكنّا لم ندرأ الكلّ، ومن جهةٍ أخرى فإنّا قد درأنا وأسقطنا بهما الكثيرَ أيضاً من الروايات الصحيحة، هذا فضلاً أنّ هذه الأدوات ما زالت توفّر لنا روايات متناقضة مع بعضها أو مع القرآن أو مع العلم الواقعي، فباختصار نستطيع الاستفادة من علم الرواية والرجال بعد التخلّص من "مذهبيّتها" كمدخل أوّلي لسلامة سند الحديث فقط، لا لسلامة الحديث، حتّى لو سلم متنُه، وهذا في أحاديث ما يُراد التعبّد به من أعمال، أمّا في غيرها فكلّ حديث ومنطقُه معه أو فسادُه فيه، ويُعرَض على القرآن فهذا ما أوصى به النبيّ (ص) وآلُ بيته، كجهازٍ معياريّ لا يأتيه الباطل أبداً، عرض الحديث على القرآن، وهذه القاعدة تنفي جملةً وتفصيلاً ما اشتُهر بأنّ القرآن قطعي الثبوت ظنّيّ الدلالة، فكيف صار ظنّي الدلالة وهو الميزان، لكن من افتقد نظام قراءة القرآن يسوغ له أنْ يقول أنّه ظنّي الدلالة، مع أنّه لمْ يرد أبداً عن الله ولا عن أهل النبوّة والقرآن، القول بأنّ كلام الله ظنّي الدلالة بل قالوا العكس في مئات الأحاديث!

2 - علْم الناسخ والمنسوخ:

إنْ يُراد به أعمّ مِن نسخ المتأخّرين، حيثُ كان لدى الأوائل يعني التخصيص والتقييد والتأقيت والظرفيّة وتبدّل الزمان كما يعني رفع الحُكم بغيره (وهو النسخ لدى المتأخّرين)

فهذا لا ريْب في ضرورته ووقوعه.

أمّا النسخ كما هو لدى المتأخّرين، والذي هو في آيات الأحكام خاصّة فهذا لا يليق بكتاب الله الخاتم وهو عينُه التناقض والاختلاف البريء منه، هذا الأمر له بحث طويلٌ وتطبيقات وحلّ للآيات الشريفة التي زُعِم نسخها وإجلاء معانيها الراقية وإبراز نظام الإسلام العمليّ العالميّ، لكن كجواب متعجّل يليق بهذا المختصر، فإنّ "النسخ" بالمعنى الثاني هو نسخٌ تاريخي (أيْ ظرفي)، وبهذا الرأي تُحلّ الإشكالات كلّها، ويبقى القرآن لنا سليماً من دون نواسخ، وينحصر النسخ بين الشرائع حسب صريح منطوق آية النسخ وتبَعَ سياقِها كما في الآية (**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)(البقرة-106)، وما يُقال بأنّ آية كذا نسخت آية كذا يبقى صحيحاً أيضاً في أعمال ذلك الظرف، أمّا الآن فأيّ الظروف عادت تعود آيتُها وحُكمها معها، أكانتْ ناسخة أم منسوخة في ذلك الظرف السحيق، على أنّ بعض الآيات الناسخة بل والمنسوخة كانتْ آيات خاصّة بذلك الظرف (تاريخيّة) وبعضها منوط بوجود الرسول (ص) كآية تحليل أزواجه، آية النجوى، فتعطّل لدينا منطوق (لا الاستفادات التشريعيّة والتربويّة) الناسخ والمنسوخ منهما.

فالنسخ حصل في الحقبة النبويّة لا بين آيات القرآن، إنّما دليل النسخ كان في آيات القرآن وهي ما أشيع عنها الآيات الناسخة والمنسوخة، والأليق تسميتها آيات التناسخ، بل آيات المرونة.

بعبارة أخرى أنّ النسخ لم يكن بين آيات القرآن، بل بين أحكامها في الواقع، لذلك نجده موجوداً في النصوص النبويّة، فحُكمُ آيةٍ إذْ نسخَ حُكمَ أخرى في ذلك الواقع لا يعني أنّ الآية نسخت الآية الأخرى في القرآن وصارت تلك تُقرأ للتلاوة فقط خاويةً بلا عمل ولا مضمون واقعي! بل كلّ منهما يصلح لواقعه الذي يتكلّم فيه وعنه، أي لموضوعه الذي تغيّرت بعضُ عناصره وحيثيّاته، كالدعوة إلى الثبات في المواجهة (الصبر) طلباً للغلبة فإنّه يدور مدار القوّة والضعف القتالي (كما في الأنفال-65)(**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**) لا أنّه هناك نسخ وتعطيل لأحدهما، ورُبّ واقعٍ قدْ أورث نسْخَ حكم هذه لتلك يوماً ما، ينقلب في مكان وزمان وظرف آخر فيغدو المنسوخ عاملاً والناسخ معطّلاً، بل قد ينقلب ذلك في خمس دقائق بتغيّر الموضوع أو جزئيّة منه، فالأمر كلّه يضحى كالمثال التالي: (الطريق مرصّف، فعليك أنْ تنطلق بالسيارة بسرعة) ثمّ (ها قد صار الطريق وعراً، فعليك السير بالسيارة ببطء) فليس معنى هذا أنّ علينا أنْ نمشي وللأبد

بسيّاراتنا ببطء لأنّه الحكم الأخير، بل معناه أنّ الحكم الثاني نسخ الأوّل في الواقع ذاك، ذلك الأوان، لأنّ الواقع تغيّر، ولأنّه تزاحم حكمين فإمّا أن نُسرع وإما أن نُبطئ، فحكم الإبطاء نسخ حكم الإسراع في ذلك الظرف، ظرف وعورة الطريق، لا في كلّ ظرف، فإذا ما عاد الطريق مستوياً فالحكم الأوّل يُزيل (ينسخ) الثاني، وهكذا، فليس ثمّة نسخٌ في النصّين، بل كلاهما يعملان، حسب توارد موضوعيْهما.

3 – علم القراءة:

كثيرُه من خطأ النُسّاخ، أو من جهة اللّغويّين القرّاء النُحاة أدخلوا قواعدهم فيها وقلبوا القراءات استشهاداً على ما يرومون إثباته، وقليلٌ منه الصحيح لاسيّما لا تسنده رواية ثابتة عن النبيّ (ص) وآل بيته (ع)، وبعضُه راجع إلى أنّ المسلمين الأوائل دوّنوا في مصاحفهم ورقاعهم شروحَهم وكتبوا اللفظ ومعناه، فظنّ البعض أنّ تلك قراءة ثانية بينما هي شرحٌ للفظ ومثاله[1]:

(عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ (**كلّما أضاء لهم مشوا فيه**): "مرّوا فيه" و "سعوا فيه". وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ (**للذين آمنوا انظرونا**): "أمهلونا" و "أخّرونا". وعنه أنه قرأ "وتكون الجبال

---

[1] – مير محمدي زرندي، **بحوث في تاريخ القرآن**، ص30.

كالصوف المنفوش" بدل **(كالعهن المنفوش)**. وقـرأ: "إنـي نـذرت للرحمن صمتا" بدل **(صوما)**. وقرأ: "إن كانت إلا زقية واحدة" بـدل **(صيحة واحدة)**).

فهذا تفسير ألفاظ لا قراءة ثانية. وزبدة الكـلام، أنّ القـراءة الثانية إن وُجِدتْ بروايتها عن المعصوم (ص) فتصحّ مع المحافظـة على الرسم اللفظي كما هو وبلا زيادة أحرف أو تبديلها، طبعاً ضمن محتملات نطقه، مثال (لفظة "تحضّون" في الفجر-18، هكذا هي فـي الرّسم، فالبعض جعلها "تحاضّون" والبعض قرأها "تحضّون" وكلاهما محتملان فحروف المدّ كثيراً ما لا تُرسَم)، فتغيّر الحركـات لا بـأس بها مثل "إنْ يَسرِق، إنْ يُسرَق"، لو ثبتت هذه القراءات، و"يُخـادعون" في سورة البقرة-3 "يخْدعون" لأنّها هكذا رُسِمتْ ثمّ أُضـيفت ألِـفٌ خنجريّة صغيرة فوق الخاء تمييزاً، فإنّ ألف المدّ لا تُضاف كثيراً في الرسم القرآني (سموات: سماوات)، ومثاله في سـورة الفجـر فقـط (ذلك: ذالك- البلَد: البلاد - الواد: الوادي - ابتلَه: ابتلاه - تحضّون: تحاضّون - يليتني: يا ليتني - يأيّتها: يا أيّتها - عِبَدي: عبادي).

أمّا القراءة التي تُبدّل في الرسم مثل "العظام كيف ننشزها، أو ننشرها" وكذا "الرياح نُشراً، أو بُشراً" فهذا من تبديل الحرف القرآني، والمنطق يقول أنّه خطأ نُسّاخ قبل عصر التنقيط حيث الباء بلا نقطـة تشتبه مع النون، وكذلك السين مع الشين، وبين الزاي والراء.

أمّا طرائق النطق بالآيات من مدّ ووصل وإمالـــة واختلافهـــا بين القُرّاء، فلا نظنّها من علم القراءة في شيء، كقراءة "طه" (طاها، أو طاهْ) بل هي من شئون التلاوة حسب اللّهجات العربيّة واعتياديّـــة ألسنها النّطقيّـــة مثـــل ("الأرض" لُفِظـــتْ "الأرْض" أو "ألْـــرْض"، أو "موسى" وأشباهها بالمدّ أو بالإمالة أو "بئـــسما" "بيـــسما" و"يُومنـــون" "خاسيين" "باريكم" لكنْ مِن دون تغيير الرسْم القرآني أيْ تُكتب مـــثلاً "بارئكم" وتُتْلى "باريكم"..) وهذا النوع ليس له دور في تغيير المعنـــى القرآني لدى الباحث.

وعلينا فعلاً، انتصاراً للقرآن، وقداسةً لكلام منزله، واحترامـــاً للسان العربيّ ولعقولنا، أن نكنس من تفاسير آياته القراءات المزعومة ذات تخريجات لا نرضاها لشطر بيتٍ ركيـــكٍ أنـــشأناه مـــن بنـــات أفكارنا، فكيف نرضاها لأقدس كلام وأحكمـــه وأبْيَنـــه، أشـــباه: (**أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَـــمُ مَـــا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**)(النمل:25) قرأ الكسائي (ألا يـــسجدوا) بتخفيـــف اللام، وتُخرّج قراءة "ألا يسجدوا" على أنّ "ألا" حرف استفتاح، و"يـــا" حرف نداء والمنادى محذوف تقديره هؤلاء، و"اسجدوا" فعل أمر: (ألا يا هؤلاء اسجدوا) --> (ألا يا اسجدوا)!! وسقطت ألف "يـــاِ" التـــي للنداء، وهمزة الوصل من "اِسجدوا"، ووصلوا "ي" بـــ "سين" اسجدوا،

فصارت صورته "يسجدوا" بغير ألفيْن لمّا سقطا لفظاً سقطا خطّاً[1]. ثم اختلف الفقهاء في وجوب سجود التلاوة عند هذه الآية، فحسب القراءة هذه تجب! وحسب القراءة المشهورة لا تجب! فنقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وإنّا لله.

4- علم أسباب النزول:

هو في الأحكام والوقائع خاصّة من حوارات وتساؤلات وأحداث وأقضية، وهو مفيد في جلاء الآية لا أنّه مُفسّر لها، على أنّ هذا العلم يُؤخذ من الروايات الصحيحة لا من هوامش التفسير التي تجمع المعقول باللامعقول، والأصحّ تسميته ظرف النزول، ومناسبة النزول، لا سبب النزول فالقرآن نازلٌ نازل، مع قناعتنا بأنّ تلك المناسبة كان لها سببٌ في تعيّن قالب الصياغة القرآنيّة لا المضمون القرآنيّ، فالذي ثبت أنّه مناسبة نزول هو أوّل أنموذج حيويّ انطباقي على النزول، وليس بالضرورة أنْ يكون أكملها وأكثرها استيعاباً، وربّ آية نازلةٍ تعلّقتْ بهدبِ تشابهٍ بسيطٍ مع مناسبتها، إنّما ضمن تربية ربّانية محكمة لربْط الآيات بالواقع (تفعيلها) وتسهيل حفظها والاعتناء بها ولتجد موقعها من ذهن وقلب الرعيل الأوّل رضوان الله

---

[1]- الفراء، **معاني القرآن**، ج2، ص290.

عليهم، وتوطين آيات الرسالة فيهم كملكيّة خاصّة تحكي شئونهم وأقضيتهم وتُعَنْون بأفرادهم وبأسماء مَنْ وما حولهم، فيعرفونها معيشةً كما يعرفون أبناءهم، وتركيزاً لمركز الرسالة الربّانيّة ومنطلقها.

أمّا بعد تحرّر القرآن من ذلك العصر ومِن شخصيّاته وأقضيته وأحداثه، عاد القرآن إلى عالميّته منعتقاً عن حصريّة الزمان والمكان والأفراد والظروف الأولى، كما كان -مُطلقاً- وكما أُريد له، ليصلح أن يتوطّن في غيرها، ولذلك كان القرآن منذ البدء يضع الصفات لا الأسماء، والطبائع لا الأفراد، والأجواء لا الأماكن، والخصائص لا التخصيصات، لئلاّ ينقبع في التاريخ ويُقبر في الأسر، ولولا إشارات ضئيلة في بضع كلمات مثل "قُريش" "مكّة" "بكّة" "يثرب" لما أدرك الباحثُ المنقطع المتجرّد شيئاً عن محطّة القرآن النزوليّة الأولى إلاّ مِنْ حيث السمات. لكن لا مشاحة أنّ مناسبة النزول الصحيحة خيْرُ مُعين على معرفة بعض الآيات وتفسيرها لا سيّما آيات الأحداث والجدل الحركيّ.

القاعدة الثالثة: فوقية القرآن عن الإحاطة البشرية

عليه الاعتقادُ الجازم أنّ الذّكْرَ الحكيم فوق كلام البشر، لُغــةً، وصياغةً، ومعنى، ومضامين، فليس كلّ حرف فيه وكلّ كلمــة وكــلّ جملة كما هي لدى البشر، فلا طاقة للبشر على الإتيان بمثله، وفــرع ذلك أنْ لا طاقة لهم على فهمه كاملاً، فلذلك لا النبيّ (ص) على عظم شأنه وجلالة مقامه قد فسّر القرآن، لأنّ عقول القوم لا تحتمل هــذا، ولمْ يُؤثر عنه بالسيرة والتّاريخ ذلك، ولا الصحابة ولا المفسّرون ولا نحن ومَن في جيلنا ولا اجتماع الجنّ والإنس بقادر على أنْ يطــوي مسألة النظر في كتاب الله مدّعياً أنّ غاية ما للآية مــن معنــى قــدْ استُوفي، إنّما استوفى جهده ونفد بصره وامتلأ دلوه لا أنّ النهــر قــد وقف أو صار كلّه في دلوه، وفي هذا يقول حبيبنا المصطفى(ص) (لا يُخلقه كثرة الترديد)[1]، ويقول علــيّ (ع) بــشأن ينبوعيّــة القــرآن ومصباحيّته قولاً شعشاعاً لو أُخذ به لما علا قرآنَ الله مسٌّ غبارٍ أبــداً ولما اتُّخذ ظهريًا: (..**ثمّ أنزل عليه الكتاب نورًا لا تُطفأ مــصابيحه، وسراجًا لا يخبو توقده، وبحرًا لا يُدرك قعــرُه، ومنهاجًــا لا يــضلّ نهجه، وشعاعًا لا يُظلم ضوءُه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبيانــاً لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزًّا لا تهزم أنصاره، وحقًّا لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمــان وبحبوحتــه، وينــابيع العلــم**

---

[1]- وقال (ص): ولا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع. الطبراني، **المعجم الكبيــر**، ج20، ص84؛ المحمودي، **نهج السعادة**، ج8، ص409.

وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه، وبحرٌ لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون..)[1]، فالعبارة القرآنية مسبوكةٌ وفق تراكيب لفظية مضغوطة مستوعبة أقصى ما يمكن مِن المعاني المعرفيّة المتجدّدة بأوجز كمٍّ لفظي.

القاعدة الرابعة: حكمة النسيج القرآني (نفي الترادف)

الاعتقاد بحكمة النسيج القرآني على مستوى فرادة مفرداته ومواقعها وتراكيبها (نفي الترادف)، التحقق بأنّه لا ترادف في كلام الله ولا تكرار ولا لغو ولا زيادة ولا حشو ولا سجع ولا ضرورة لغويّة، (لا على مستوى الحروف، ولا الكلمات، ولا التراكيب). البعض يفترض وجود ترادفٍ في كتاب الله، حتّى أنّ الطالب المدرسيّ يُسأل: ما هو مرادف كلمة كذا؟ وهذا خطأ، والبعض افترض الترادف غير موجود في كتاب الله ولكنّه موجودٌ في اللّغة العربية، ونرى أنّ الترادف في كتاب الله هو الذي يعنينا وهو الذي ننفيه اعتماداً على حكمة الله سبحانه وبلاغة بيانه، أمّا الترادف في اللّغة فذلك بحثٌ آخر يُراد استقراؤه والإبحار فيه بأدوات تحليليّة

---

[1]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**/شرح محمد عبده، ج2، ص 177.

تاريخيّة علميّة، وإنْ كان العقلُ يميل إلى نفي الترادف مطلقـاً، فمـا يَظنّ أنّه ترادف هو إمّا أنّه تحويرٌ في اللّهجات لأصلٍ واحد، أو هـو تطوّر في المفردة العربيّة لتحمل دلالات كانت غائبة في الاسـتعمال الأقدم. نحن نقرّ أنّ أشياء قد تحظى بعدّة أسماء وعناوين وليس هـذا من قبيل الترادف كأسماء الأسد (سبُع، ليـث، أسـامة، قـسْورة ..) وأسماء السيف، وغير ذلك الآلاف من الأمثلة، لكنّ الواضـع لهـذه الأسماء سواءً كان واحداً أم متعدّداً لابدّ أنّه لحظ صفةً ما أو حـدثاً أو نسبة فأعطى دلالةً صوتيّة تُحاكي ما لحظ من مائز حتّى أنّهـا كلّهـا مشتقّة مِنْ أفعال في مآلاتها، وليس أدلّ على مـا نقـول أسـماء الله تعالى، فلا يُمكن أنْ نقـول بـدلاً مـن (الـرَّحْمَنُ عَلَـى الْعَـرْشِ اسْتَوَى)(طـه:5)، (القهّار على العرش استوى) إذاً لهلكتْ الخلائـق، ولا أنْ نقول (يا عزيز اغفر لي) بدلاً من (يا غفّار)، فكيف لو كـان الواضع الأوّل في مفردات اللسان العربيّ بالخصوص وأصوله هـو الله تعالى كما نعتقد!

فميزة الترادف تفترض المساواة في المعنى بحيث يصحّ إبدال الكلمة مكان الأخرى، وميزة اللاترادف تفترض اللامساواة والتغـاير لكنّها لا تمنع الالتقاء في مـساحة مـشتركة، وكلّمـا نحـى العـالِمُ للتخصّص امتنع عن الترادف في لُغته ودقّق في اختيار مـصطلحاته وهذا ما جعل العلوم تتعمّق (فالبطن ليس مرادف المعدة في الطـبّ)

(والنّور ليس الضوء في الفيزياء) وفي "القرآن" وهو أحكم من كتب الطبّ والفيزياء ليس من ترادف، هذا أمرٌ هو عمدةٌ ضروريّة لفهم القرآن في جميعه، لك أنْ تتأمّل في عصا موسى أنّها انقلبتْ إلى ماذا؟ ثُعبان، حيّة، أم أفعى؟ مَنْ يقولُ بالترادف يظنّها واحدة، ولكنّ آيات الله تقول أنّ موسى حين تدريبه على سلاح العصا كخطوة تمهيديّة انقلبتْ له حيّة فقط، أمّا حين المواجهة الكبرى فقد انقلبت إلى ثُعبان مبين، ولمْ يذكر الأفعى بالمرّة.

هذا الأمر يُلزمنا الاعتناء بالمفردة القرآنية وتركيبها واستعمالها في اللّسان العربي بما يُشرّف السياق ويجلو الحكمة لا حسبما يُقال دائما أنّه جرى على ألسنة العرب من شوادّ ومن تخريجات وتقديرات، فالرحيم ليس الرحمن، والكافر ليس المشرك، بل "الذي كفر" ليس هو "الكافر"، و"الذين أشركوا" ليسوا "المشركين"، وفي قوله سبحانه: (**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**)(المدثر: 33، 34) ينبغي ألاّ تتساوى "إذْ" في التفسير لدينا مع "إذا"، فإنّهما لحكمة وُضعا ومُيّزا ليصفا حادثة بكيفيّتها. و(**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**)(طه:70) في طه، لا تُساوي (**رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**)(الأعراف:122)، (الشعراء:48)[1]، وغيرها من أمثلة التي

---

[1]– الآيتان هما، الأولى: (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)(الأعراف:121، 122) وأيضاً نفسها في (الشعراء: 47، 48).

تختزل كلام الله بأيّ كلام فيهترئ النظام المحكم المخبوء فيه. بل قد تذهب دلالات الألفاظ إلى أبعد من ذلك، فيأتي اللفظ في سياق بغير دلالته الأولى في سياقٍ آخر، هذا غير أنّ القالب اللفظي للكلمة يُعطي معانٍ مختلفة أو إضافيّة حيث: "**استطاعوا**" لا تُساوي المخفّفة "**اسطاعوا**"[1]، و"**الذكر**" ليس "الذكرى" وليست "التذكرة"، و"كَرْهاً"

الثانية: (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)(طه: 70) فليس السجع ومناسبة نهاية الآية الذي حكم بقلبها إلى (هارون وموسى) فقد خالف سبحانه السجع بعد 7 آيات في سورة طه بقوله: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)(طه:78)، فالسياق يكشف لنا أنّ آية الأعراف والشعراء (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) هو نزولٌ من الأعلى مِن الربّ ثمّ موسى ثمّ هارون لذلك ذُكر "ربّ العالمين" هنا، فهو تدرّج رسالي (يخصّ الرسالة)، أمّا آية "طه" فهي تنطلق من واقع المعاملة فيكون هارون الذي يُمارس الدعوة والخطاب والجدال والعلاقات هو الأقرب في الذاكرة (هارون وموسى) فهو تدرّج رسولي (يخصّ الرسول) وقدْ قدّم موسى أخاه هارون في شأنه الرسوليّ لهم، ليتعاطى معهم ويُباشرهم بقوله (ع) (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) (الشعراء:13).

[1] – قال تعالى (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً)(الكهف:97)، في مثل هذا قال أهلُ اللغة أنّ "زيادة المباني زيادة المعاني"، وجليٌّ أنّ اعتلاء الردم للظهور عليه كحال متسلّقي الجبال للعبور إلى خلفه أيسر جهداً وإمكاناً من محاولة نقبه أو هدمه لاختراقه إلى الجهة المقابلة كما فعلت آلات التقدّم العصريّة فشُيّدت بها الأنفاق في الجبال، لذلك كان المناسب لحفر السدّ "فعْلا" ثقيلاً (استطاعوا)، وناسب اعتلاء السدّ فعْل ("اسطاع" بدون تاء) ليُلفظ خفيفاً وبسرعة، وهذا الفعل كرّره سبحانه في القرآن كلّه مرّتيْن، كلاهما في سورة الكهف، فقال سبحانه قبل ذلك في قصّة العبد الصالح مع موسى (ع) (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)(الكهف: 82)، مع أنّ العبد الصالح أكّد لموسى منذ البداية (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)(الكهف: 67)، وكرّرها 3 مرّات في الآية 72، و75، ذلك لأنّ الإنسان يعجز عن الصبر على ما لا علم له به أو

مغايرة لـــ"كُرْهاً"[1]، و"عباد" و"عبيد" يختلفان مع أنّهمـــا جمـــع "عبـــد"

بسرّه ويُخالف مألوفه وقواعده، ولكنْ بعد انكشاف السرّ يزول عنـــصر المفاجـــأة ويجتاز المرء امتحانه المتوقّع بأدنى استطاعة، فكلّم العبد الصالح موســـى بعْـــد انكشاف السرّ من هذا المنظور في شبه ملامة: (أنّك فـــي الواقـــع مـــن حيـــث الاستطاعة تستطيع بسهولة أنْ تصبر، لكنّ العقل المتفاجئ بالواقع الجديد يخـــون صاحبه عن التأقلم فتعسر الاستطاعة)، لذلك عبّر عنها في النهاية "لمْ تسْطِعْ" ولمْ يقُلْ له "لمْ تستطِعْ"، لهذا السرّ أيضاً ترى أنّ العالِم بخبرٍ لا يحتاج لقوّة صبر على تحمّله، والعالِم بنتيجة شيءٍ –كمباراة مثلاً– يفقد عنصر التشويق لأنّه مـــا مِـــنْ مُحفّز يُحرّك إرادته وتفاعله تجاه التحدّي، فترى جسمه غير نـــشط ولا متوثبـــاً، بخلاف الذي لا يعرف النتيجة سلفاً فإنّه يشحن من استطاعته ما يجعلـــه متـــوفّزاً متحفّزاً للاصطدام بالمجهول المؤلم أو المشوّق.

[1]– كَرْهاً، مفتوحة الكاف (جُعلتْ الفتحة في الإعراب رمز المفعوليّة لأنّها أخفّ)، وكُرْهاً مضمومة الكاف (الضمّة في الإعراب رمز الفاعليّة لأنّها أثقل)، اســـتفادةً من هذه النظرة نستطيع أنْ نفترض أنّ "كَرْهًا" (مفعوليّة)، أي انفعـــال الأشـــياء بإجبارها وضدّها "الطوْع"، بغضّ النّظر عن محبّة ذلك الكائن للفعل الواقع عليـــه جبْراً أو كُرْهه له، قال تعالى (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً)(التوبة: 53) وقال (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً)(الرعـــد: 15) وغيرهـــا. أمّـــا "كُرْهاً" (الفاعليّة)، فهي عمليّة اختياريّة نفسيّة تقع مِن الكائن الحـــرّ فقـــط غيـــر المُجبَر، كالإنسان مثلاً، وضدّها الحبّ؛ قال تعالى (وَوَصَّـــيْنَا الْأِنْـــسَانَ بِوَالِدَيْـــهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً)(الأحقاف: 15)، فلا أحدَ مِن النساء تُحبّ آلام الحمْل والولادة، هي لمْ تحمله كَرْهاً (بفـــتح الكـــاف) أيْ مُجبـــرة، إذْ كـــان بإمكانها إسقاطه جنيناً، لكنّها أدامتْ حمْله باختيارها مع كراهتها لألم الحمل وثقْله وما يُشوّهه في بدنها، لهذا الإحسان الجزيل مِن الأمّ والأب أمَـــر تعـــالى الابـــن بالإحسان لهما ردّاً للجميل كما في صدْر الآية، لذلك حين عقّب ســـبحانه بجملـــة (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ) أعقبها بدون حرف عطف تعليلاً للوصيّة الرحمانيّة للأبنـــاء وهـــي قوله (وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً). وقال تعالى أيضاً (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَـــيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ)(الحجرات: 7) وقال (كُتِـــبَ عَلَـــيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ)(البقرة: 216)، "فالكُرْه" المضموم –بشهادة القرآن– عكْسه الحـــبّ

فالأولى عبد ألوهيّة والثانية عبد ربوبيّة أو ملْك، و"شاهد" يختلف عن "شهيد" وكذلك جمعهما بالتوالي "شاهدين"،"شهداء" و"شهوداً"، و"عالمون" غير "علماء"، و"نبيّون" غير "أنبياء" فالأولى للأمم والثانية محلّية لأمّة واحدة .. إلخ، فهي مفاصل بفهمها والتفريق بينها يُوضع الكلم في مواضعه، "فالدين كلّه فرْق" والقرآن فرقان، والتفريق بين الألفاظ هو تصنيف للعلْم، وهو من مهامّ قلم الفكْر الإنسانيّ وتعليمه الأسماء كلّها والقدرة على تمييز الموجودات بتجريد أسماء لها[1].

فعلى هذا، القرآن أشبه بالمعادلة الرياضية والكيميائيّة مضبوطٌ بألفاظه ومعانيه وتراكيبه بدقّة متناهية، "كالجينوم البشري" وكلامه سبحانه كخلْقه المتقنِ تماماً مضبوطٌ بقواعده المحكمة **(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)**(الملك: 3)، وكلّ لفظة بذاتها لها دوْرها الخاصّ في موقعها الخاصّ في المُعادلة القرآنيّة، كما الأنف في موقعه في الوجه لا أفقيّاً لا مقلوباً لا مكان العين أو الأذن، وكما

وهو للكائن المختار، "والكَرْه" المفتوح -كما قدّمنا- عكْسه الطوْع وهو لكلّ كائن وغير ناظرٍ إلى مشاعر.

[1]- قال تعالى (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق:3-5)، وقال (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)(البقرة: 31)، فمن مصاديق القلم هنا -علاوةً على ما قاله المفسّرون- هي الميزة العقليّة البحثيّة التي أكرمنا الله بها في تصنيف الأشياء وتمييزها ("القلم" مِن التقليم وهو إبانة شيء مِنْ شيء)، الميزة التي ميّزتنا عن البهائم بل وعن الملائكة المقدّسين، فبها نتطوّر باكتشاف العلوم وتصنيفها ونرتقي بالتخصّص والإضافة، ولولا هذه الميزة لجمْدنا على ما بُرْمِجْنا به.

باقي الأعضاء، وأيّ تبديلٍ (بظنّ الترادف أو التساهل)، أو إلغـاء أو تجاهل لأيّ لفظ سيُشوّه المعنى، فلو قُلنا (والضُحى) أو (والفجْر)، (**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**)(العصر:2) لأهلكنا خطـابَ الآيـة وغرضَـها[1]، وبالتفاتنا إلى قوله سبحانه لمؤمنيه (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)(البقرة:244)- وكان الظاهر أنْ تُذيّل "بصيرٌ عليمٌ"- أدْركنا أنّ المؤمنين يُقاتلون في الوقت الذي هم يـدْعون الله بإسـباغ النصر ويذكرونه بالتحميد والتكبير والاستعانة، فالله العـالمُ بجهـدهم ومقدار بذْلهم يعدُهم الاستجابة هنا مِن اسمه المقدّس "سميع"، ولو قال "بصير" لانقلب المعنى، ولوعدَهم الصبر والاحتـساب فقـط دونمـا استجابة، فإنّ ما يُصيبهم بعيْنه وتحت نظره وبعلمه! ولو قُلنا في مقامٍ آخر بدلاً مِن (**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَـسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) (المائدة:38)، واستبدلناها بـــ (والله غفورٌ رحيم) لقوّضنا قولَ العليّ الحكيم وقبّحناه، حيث صار قطْعُ اليد

---

[1]- سيأتي تمام بعض المعنى لاحقاً (في النقطة الثالثة من المعطيات الإرشـادية) حين الكلام على وجوبِ وجود رباط منطقي معنوي بين المقسَم به والمقسَم لــه. إضافةً، أنّ مفردة "الضحى" أو "الفجر" على ما بيّناه في الموضوع المتعلـق بـــ (**التفسير والتأويل**) في تفسير آيات الفجْر في بحـث "**الهجـرة إلـى القـرآن**"، تختزنان معنى إنهاء حُقبة، بانبلاج نور، ما يُفهم في هذا السياق بالخصوص بأنّه تهديدٌ للإنسان، الأمر الذي يُخالف توجّه الآية التي إنّما تستحثّ الإنسان للإيمـان والعمل الصالح وتنعى عليه تضييع نفسه بهدْر وقته بيديْه، لا أنّها تُهدّده وتتوعّده وتتعجّل إحضارَ خاتمته السيّئة بيْن يديه بإهلاكه وإبلاج فجر آخرته، إذْ أنّنا لـو حذفنا مفردة (والعصر) لما فهمنا ثمّة جريمة للإنسان مِن عبارة (إنّ الإنسان لفي خُسْر)، فعلى ماذا إذاً نتوعّده ونُهلكه وهو مجرّد خاسر لا أنّه باطرٌ ولا فاجرٌ؟!

غفراناً، والنكالُ نفْحاً مِن فيْض الرحمــةِ!؛ لــذلك فالروايــة التاليــة المزعومة عن رسول الله (ص) أو الفهم المشتقّ عنها الذي يُـساوي بين هذين الأمرين في كتاب الله: **(قلتَ "غفــوراً رحيمــاً"، أو قلــتَ "سميعاً حكيماً"، أو قلتَ "عليماً حكيماً"، أو "عزيزاً حكيماً"، أيَّ ذلــك قلتَ فإنّه كما قلتَ، ما لم تختمْ عذاباً برحمــة، أو رحمــةً بعــذاب)**[1] ينبغي طرحها، بل طرْحَ حتّى التخريج غير اللائق بكلام الله المروي عن الصحابيّ الجليل عبد الله بن مسعود: **(إنما هو كقول أحدِكم: أقبلْ وهلمّ وتعال)**[2]، لأنّ هذه الثلاثة لو قلّبنا بينها في القرآن لفسد كتاب الله كما يفسد وجْه الآدمي حين نضع مكان أنفه منخريّ بغْل أو خرطــوم فيل بدعوى أنّها كلّها أنوفٌ ومعاطِس ومشامٌ ومناسم تنفّس.

هيهات، إنّها ألفاظ محسوبة بدقّة حسابية وبلاغيــة ومعنويــة وهندسيّة وعلميّة وبيانيّة ولا يُمكن استبدال حرف واحد منها فــضلاً عن كلمة أو عبارة، فكيف صار "غفورٌ رحيم" مساوياً "عزيزٌ حكــيم"، وكيف أصبحتْ (هلمّ، أقبلْ، تعال) بمعنى واحد؟ والقرآنُ القوْلُ الفصْل يرفضُ هذا ويقول أوّلاً: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ)** (المنافقون:5)، ويقول ثانياً: **(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّــذِينَ**

---

[1]- وأشباه هذه الرواية كثير، منها (عن أبي هريرة: قــال رســول الله: إنّ هــذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ولا حرج، ولكنْ لا تختموا ذكر رحمــة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة). رواه: البيهقي، **السنن الصغرى**، ج1، ص567.

[2]- سعيد بن منصور، **السنن**، ج1، ص160.

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا)(الأنعام:150)، وثالثاً:(**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**) (القصص:31). فهلاّ حاول مَنْ له ذائقة لُغويّة أنْ يستبدل (هلمّ، أقبلْ، تعال) ببعضها في المواقع الثلاثة الآنفة، ليرى كمْ يُقْحش في كلام الله وكم تَبْعُد النجْعة في المعنى النزيه العالي! هذا إنّما فيما نقْدِر أنْ نُبصره مِن فساد في شأن نظم القرآن الظاهر، فما بالك بما لا نُبصره مِن فساد (**فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**)(الحاقة:38-46) فليس مِنْ تقوُّلٍ ولا تجوُّزٍ وتصرُّفٍ في ألفاظ النصّ القرآني المُحكم. وبهذا يسقط ما قاله ابنُ خالويه[1]، "وليس في كلام العرب "بعد" بمعنى "قبْل" إلاّ في قوله تعالى: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**)(الأنبياء:105)"، والخطأ يأتي عليه مِنْ ثلاث جهات: 1- أنّه حطّم باشتباهٍ واحد كلامَ العرب ونظامَه السائد القائل بعدم تساوي الحروف. 2- أنّه جعل كلام الله مِنْ كلام العرب. 3- أنّه حسِبَ أنّ "الذِّكْر" هو القرآن فقط، وهذا مِنْ غلبة القداسة والشرع على الحقيقة

[1]- الزبيدي، **تاج العروس**، ج2، ص304؛ الشوكاني، **فتح القدير**، ج5، ص379.

والقرآن، فاعتاص عليه الأمر، ولو أنّه حكّم لسانَ العـرب وسـلائق استخدامهم أنّ "بعْد" لا يُمكن أنْ تكون بمعنـى "قبْـل" وإلاّ لـسقطت معايير الكلام وفُقدت الثقة بين المـتكلّم والـسامع وأفـادتْ الأخبـار والحقائق الشيءَ ونقيضَه وهو العبث، ولـو أنّـه رجـع للاسـتعمال القرآني لكلمة "الذّكْر" وحكّمه لاسيّما قوله في بداية سـورة الأنبيـاء نفسها الآية 7 ذاكرةً الأمم السابقة: **(فاسْألوا أهْلَ الـذّكْر إنْ كُنْـتُمْ لا تَعْلَمُونَ)** وتتكرّر في (النحل:43) أيضاً (وأهل الـذكر أهـل الكتـب الموحاة)، لما أشكل عليـه الأمـر ونُـسِجتْ أمثـال هـذه القواعـد والاستثناءات والتحقنا بها وبغيرها، و"الذّكْر" مصطلح معروفٌ لـدى العرب قبل الوحي، بدليل أنّ المشركين العرب مع عـدم اعتـرافهم بالقرآن يتهكّمون كما أخبر القرآن عنهم: **(أءُنْزِلَ عَلَيْـهِ الـذّكْرُ مِـنْ بَيْنِنَا)**(صّ:8)، **(أءُلْقِيَ الذّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بيْنِنَا)**(القمر:25)، **(وَقَالُوا يَـا أيُّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إنّكَ لَمَجْنُونٌ)**(الحجر:6) وقـولهم **(لَـوْ أنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِـنَ الْـأوّلِينَ)**(الـصافات:168)، وإنّ مقولـة مولانـا المصطفى (ص) في صفة القرآن الكريم: **(يصدّق بعـضُه بعـضا)**[1]،

---

[1]- أحمد بن حنبل، **مسند أحمد**، ج2، ص185؛ البخاري، **خلق أفعـال العبـاد**، ص43؛ الطبراني، **المعجـم الأوسـط**، ج3، ص227، ج5، ص302؛ المتقـي الهندي، **كنز العمـال**، ج1، ص192، 193؛ الهيثمـي، **مجمـع الزوائـد**، ج1، ص171؛ عبد الرزاق الصنعاني، **المصنف**، ج11، ص217.

وأكّد هذا عليّ (ع) بشأنه (**الكتاب يُصدِّق بعضُه بعضاً**)[1] تقضي بحقيقة لا بدّ مِنْ جلائها، وأمّا المقولة المشهورة (**القرآن يُفسّر بعضه بعضاً**) فهي تصحّ إن كانت بمعنى ما سلف وبمعنى أنّ تحديد مفاهيم القرآن وتفسيرها ينبغي أنْ تُؤخذ منه لا مِنْ خارجه، وندّعي أنّ القرآن– لوحدة بنائيّته– يُساعد بعضُه في تفسير بعض لا أنّه يُفسّره.

فما مِنْ كلمة تُفسّرها كلمة أخرى إلاّ أفضى بالترادف في كلام الله، بل وما من حرف يُفسّر حرفاً آخر[2]، ومن نافلة القول ما

---

[1]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**/شرح محمد عبده، ج1، ص55.

[2]– إنّ البعض من المفسّرين يزعم أنّ "الحرف كذا استُخدم مكان الحرف كذا"، ما يوهم القارئ بإمكان الترادف وإمكان إحلال حرفٍ مكان آخر، وعلى هذا المُدّعى يكون الحرْف الأصل أبلغ فلمَ استعاض عنه سبحانه بالأبعد دلالةً وإيفاءً منه؟ وسنضرب مثلاً واحداً ممّا يقولون في مجيء "اللام" بمعنى "عن"، كما في قوله سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)(الأحقاف:11)، فإنْ لمْ يكن بمقدورنا تصوّر وجود ثلاث فئات هنا: هي فئة الذين كفروا، فئة الذين آمنوا المتكلّم معها والمحتفظة مع الأولى بوشائج وولائج، ثمّ فئة السابقين المتميّزة المتكلّم عنها، لتحاكي في تصنيفها الثلاثي الآية: (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ)(الأعراف: 75)، فإنْ لمْ يكن بمقدورنا تصوّر هذا الوجود الثلاثي، وألفيْنا أنفسنا أمام آيات كالتالية: (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) (يونس:77)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)(آل عمران: 156)، (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)(آل عمران: 168)، (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)(البقرة: 154)، (وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً)(هود: 31)، (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً)(الكهف:23)، وغيرها،

من آية تُفسّرها آية ثانية وإلاّ صار هنالك حشوٌ ولغو وزيادة، حتّى ولو كانت الآيتان بنفس المفردات فالدلالة الموضعيّة للآية في سياقها تُؤتي غير دلالة الثانية، حيثُ لا أقلّ أنّ هناك معنى كلِميّاً، وآخر

فهل نُصلح كلام الله ونستبدله بما يأتي في أذهاننا من تصوّر؟ فبعد أنْ لحظنا عبارة (قالَ لِكذا)، نقول أنّها بمعنى (قال عن كذا)، (أتقولون عن الحقّ) (قال الذين كفروا عن الذين آمنوا) (وقالوا عن إخوانهم) .. إلخ، إذن، فعبارتنا أبْين وأولى وأجلى من عبارة كلام الله!

لعلّ الآية (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ)(فصلت:43) تُبيّن سرّ الجواب والردّ عليهم، إذ هي تُعطي الاتّجاهين: أنّهم قالوا عنه ساحر ومجنون في غيابه، وأنّهم قالوا له ذلك مكاشفةً، لكنّه لا يُوجد في القرآن (قال عن) حيث أنّ عمليّة "القول" هي ثنائيّة تفترض دائما وجود مُلقي ومتلقّي (أو سامع)، ولأنّ الحرف (عنْ) يُوحي بالبدليّة والنيابة فكأنّه يُصيّر العبارة "قال نيابةً عنه" أي (وجود مُلقي ثمّ مُلقي آخر نائب عنه) وهو خلاف المُراد ويُبطل الكلام فيسقط ما ادّعاه المفسّرون، فلمنع هذا الإيهام من جهة، ولتضمين غرضٍ آخر أنّ القول اشتمل المباشرة وغير المباشرة، أي أنّ المتلقّي هو نفسه المتكلّم عنه كطرف ثالث أيضاً كمُتحدَّث عنه، فهو حاضر يسمع وهو غائبٌ يُتكلّم عنه، قد أسمعوه هذا الكلام بشهوده ثمّ أعادوه بعد غيابه، لأجل كلّ ذلك جاءتْ العبارات تدلّ على هذه المعاني (قال لكذا) يُثبت شهود الشيء المتحدَّث عنه (بدلالة حرف اللام) ويُثبت غيابه حين التحدّث بدلالة الجملةُ اللاحقة التي تُحيل على غائب (لاحظ مثلاً قوله تعالى: (**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ** (شاهد) **إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً** (غائب))(الكهف:23) ، وكذلك طبّقها في الباقي ترَ ذلك جليّاً. وفائدة هذا يتجلّى في أنّه يُشعر بأنّ الطرف الأوّل يرى أنّه يمتلك ناصية الطرف الثاني، وغير مسلّم أنّه ينبغي أنْ يُعامل كطرف ثالث غاب عن دائرة شعور وعن هيمنة وتصرّف ونظر الطرف الأوّل، فقد يحدث كثيراً أنْ تستحضر عزّةُ النّفس المنفعلة الحانقة وكبرياؤها –في حديث نفسي مُستعلٍ– تستحضر خيالَ مَن أساء إليها، فتُوجّه اللّوم والتقريع والسبّ بخطابٍ مباشر لا بخطاب الغائب، وكأنّ المُخاطَب حاضرٌ في الذاكرة، مملوكُ الناصية، خاضعٌ للتأثير والهيمنة والإذعان. فترى نَفَس هذه الهيمنة وامتلاك الناصية جليّة في المقولات: (ما سبقونا)، (سحْر)، (لو كانوا عندنا)، (لو أطاعونا)، (لن يُؤتيهم الله خيرا)، (إنّي فاعلٌ ذلك)، (أموات)!

جُمَليا، وثالثاً سياقيا، فآية مثل **(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)**(الأنبياء:7) وردت بثلاث صيغ في يوسف والنّحل والأنبياء، ففيها ثلاث معارف لا واحدة وليست هذه هي هذه ولا هي تلك، فتفسير بعضه بعضاً هو بجمع المتماثل من كلماته لمعرفة المجهول منها، وبالاستنباط، وبالربط والإلحاق وجمع مواضيعه لاستكمال الصورة وغيره، مثال تبسيطي نقرأ **(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)** (التكوير:3)، فنتحيّر في معناها، فقد ينفتح لنا أفقٌ إنْ نضدّدناها مع **(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)**(النبأ:20)، و**(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً)**(المزمل:14) و**(وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً)**(الطور:10)، **(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً)**(الكهف:47) و**(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ)**(الرعد:31)، ثمّ بالرجوع للسان العربيّ لمعرفة ما هو "جبل" وما "سيّر"، وهذا إنّما لمعرفة ماهيّة التسْيير وكيفيّته "والجبل" وماهيّته، أيْ تفسير المفردات فحسب، لا أنْ نُساوي بين تلك الآيات ونجعل معناها واحداً وظرفها واحداً ودلالاتها واحدة، فهذا القصور بعيْنه.

فما مِن تكرار -كما أشرْنا- ولا لغو في آياته سبحانه ولا إعادة في المعلومات نفسها من كلّ الجهات **(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)**(الشمس:3) لا تُساوي **(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)**(المدثر:34) فهذه

آية لأمر -كما يُفضي السياق- والأخرى هـي لأمـرٍ آخـر، و(**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**)(الانشقاق:1) ليست هي (**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ**)(الانفطار:1) ليس فقط لأنّ الانفطار غير الانشقاق بل لأنّ السياق غير السياق، فإذا كانت المفردة تعني أمراً في آية فربّما تعني غيره في آية أخرى كلفظ "السماء" في قوله (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَ<u>السَّمَاءَ</u> بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ <u>السَّمَاءِ</u> مَاءً**)(البقرة:22)، فالأولى الغلاف الجوّي والثانية السحاب، فكذلك التركيب (العبارة أو الجملة) هو وحدة بناء الفقرات، كالتركيب: (**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**)(الأعراف:54) مع أنّها تتكرّر ست مرّات إلاّ أنّها تفيد أمراً آخر في كلّ مرّة من سياقاتها القرآنيّة الستة. و(**وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ**)(الانفطار:3) غيرُها (**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**) (التكوير:6) و(**وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**)(الصافات:5) ذات مدلولٍ يختلف كليّاً عن (**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**)(الرحمن:17)، (**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**) (المزمل:9) و(**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**) (المعارج:40) و(**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ**) (الرحمن:26، 27) تختلف جذريّاً عن (**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**) (القصص:88) ولو قرأنا (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**) التي تكرّرت في سورة الرحمن 31 مرّة، فهذا ليس تكراراً للتأكيد وإنْ أفاد ذلك، كما أنّنا لا نستطيع أنْ نختصر السورة فنُخرج هذه العبارة منها

كقاسم مشترك فيها لنجعله في النهاية، فتكرارها يُفيد أنّ كلّ النّعم الموصوفة والقدرات المُعطاة آية بعد آية هي تخصّ قبيلي الجنّ والإنس، فحيث خوطب الجنّ بهذه الآلاء فهو له نسبة منها بغضّ النظر عن كيفيّة توظيفها وانتفاعه منها، ومن أراد أنْ يبحث في موضوع حقيقة الجنّ بعيداً عن الأوهام والخرافات، عليه أنْ يلتفت لهذا ويتمعّن فيه، وإذا كان الإنس يُقابله الجنّ (كمجموع)، والإنسان يُقابله الجانّ (كمفرد أو كاسم جنس، حيث أنّ "جانّ" اسم فاعل مِنْ "جنّ")، فلماذا قابل سبحانه الإنس بالجانّ أيضاً، وهل أنّ الجنّ مخفيّون بالأصالة في مستوى ومختفون بفعلهم (اسم فاعل) في مستوى ثانٍ (الجانّ) فيزيد خفاؤهم. نفس الأمر نجده في تكرّر عبارة **(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)** 12 مرّة في القرآن، مرّة في سورة الطور، وأخرى في المطففين، وعشر مرّات في المرسلات، وتكرارها يفيد تعدّد الويْل بتعدّد السياقات لا وحدته وتأكيده فحسب.

ومثالٌ آخر، نلحظ منه التنوّع في البيان وظهور ما أُبهم في آية من آية أخرى، حيث قال عزّ وجل:(**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**) (البقرة:185) ولم يظهر به أفي ليلٍ هو أو نهار، وبان بقوله عزّ وجلّ (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**)(الدخان:3) لكنْ لم يظهر به أيّ ليلة، فظهر بقوله تعالى (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**)(القدر:1) فهذه

ثلاث معارف لا واحدة كلّ منها تتكلّم في شأنها وموضوعها وغيرُ قاصرةٍ فيه.

القاعدة الخامسة: التحرّر بكتاب الله منْ أسْر فهم السالفين

التحرّر بكتاب الله منْ أسْر فهم السالفين رضوان الله عليهم، فقد يُخالف المشتغلُ بالقرآن المفسّرين الأجلاّء مخالفةً بيّنة ولا ضيْر مِن ذلك، وقد يتّفق معهم، فكتاب ربّنا هو إلى النّاس كافة؛ إلينا كما كان إليهم، علينا أن نقوم بواجبنا حياله كما قاموا أثابهم الله بواجبهم فيه وفْقَ ما بلغوا، مقرّين مع اختلافنا معهم بفضل جهودهم، ولولاهم لما وصلنا إلى ما نحن فيه ولما تراكمت المعارف لدينا، فأجرهم أبلغ وأجزل مِنْ أجرنا لو قُبلَتْ لنا الأعمال، فإنّهم اجتهدوا وسْعهم وسافروا البلدان وقطعوا الفيافي لطلب العلم مع بُعد الشقة وشظف العيش وعوز الأداة وقلّة توفر العلوم، والأجر يُعطى على قدر المشقة؛ لا يُؤتى الأجر على الوصول للحقّ بقدر ما يُجزل على ما بُذِل من أجل الوصول إليه، فلا يستريب عاقل في أنّ جهود المخلصين منهم وضناهم وبذْلهم هي أضعاف أضعاف ما يُمكن أن نبذله، ولو أولدتنا الأقدار في زمانهم لما وَسِعَنا أن نقوم بما قاموا به ولا بلوغ ما وصلوا إليه، فأجزل الله أجورهم ورضي عنهم.

ومع احتفاظنا لعظيم مقامهم، فعلينا أيضاً ألاّ نُحكّم شيئاً فوق كلام الله تعالى، وأدلّة ذلك من العقل والقرآن ومن السنّة الصحيحة فوق أن نستقصيها هنا ونُحصيها، ونستأنس بشاهدٍ تاريخي للفائدة: (حيث استدلّ الإمام جعفر الصادق (ع) على حرمة الخمر مع صراحة أنّه مجرّد منهيٌّ عنه في العبارة القرآنيّة، استدلّ لا من السنّة الشريفة "بلعن شاربها وعاصرها و.."، بل من القرآن، بتسميتها "إثماً" (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**)(البقرة:219)، والله قد حرّم الإثم، في قوله (**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ**)(الأعراف:33)، ودون هذا الاستدلال يُجعل قولُ السنّة المرويّة ثُمّ آراء الشارحين فوق كتاب الله[1]. فلسنا في غنى عن مراجعة أصيلة لتراثنا، وإلى حركة نقديّة صارمة لكن أخلاقيّة مهذّبة مُصلِحة غير مُتطاولة، إذّ النقد عمليّة تنموية تُعمّق الوعي الإنساني وتُراكم معارفه في مدارج السيْر الحضاري.

---

[1]– إنّ تقديم كلام الله على كلام مَنْ دونه، وجعل شأن الله سبحانه فوق المخلوقين، قدْ يُظنّ به إزراء بالمقامات العظيمة للأنبياء ومظنّة الاستخفاف بشأن العلماء، هذا ما عالجه ابن القيّم وما أروع ما قاله مبيّناً في كتابه **الروح** صفحة 356 في تجريد التوحيد وهضم أصحاب المراتب، ثمّ قوله في تجريد المتابعة (فمن عرض أقوال العلماء على النّصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النصّ لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم، فإنهم كلّهم أمروا بذلك، فمتّبعهم حقا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم (فيما أوصوا به)، فخلافهم في القول الذي جاء النصّ بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النصّ على أقوالهم، فمن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه ..)

القاعدة السادسة: الوحدة الموضوعيّة والسياق القرآني

السياق القرآني للآية بما قبلها وما بعدها وموضعها الخاصّ في السورة وهويّة السورة واسمها الموقوفة عليه، أمرٌ له دوره في فهم المراد، وربط الموضوع الواحد المتناثر بآياته في سياقات مختلفة في سور متعدّدة له دوره العظيم أيضاً، في ترسّم معالم الصورة كاملةً، لذلك نجد أنّنا أمام قوله: (**كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**)(المدثر:32– 34) إذا فسّرنا أنّ الآية المقسَم بها هي كوكب "القمر" نفسه، فذلك لا ينسجم مع سياق ذهاب اللّيل وبزوغ النهار إذ الأوْلى أنْ يُقال (كلاّ والشمس) فهي سبب إدبار اللّيل وإسفار النّهار، بل لا موقع للحرف "كلاّ" للردع والإنكار إنْ كانت آية ظاهرةٍ متكرّرة لا آية تذكيرٍ مفردةٍ حاسمة. إلاّ إذا حرّكنا مفردة "القمر" إلى معانٍ أخرى، وربطنا ذلك باسم السورة "المدّثّر"، فرفع الدثار يُحاكي إدبار الليل، واستهلال الإنذار بالرسالة الخاتمة يحكي إسفار الصبح، والنبيّ الخاتم هو قمرُ العالَم نذيراً للبشر، فهذا محاولة، هذا اقتراب لفهم الآية، هذه استفادة، وليس هو تأويلها، بل لابدّ من مراجعة السياق وضبط معادلة إيقاع الكلمات، لنشهد بعدئذ أنّ تأويل هذه الآيات، سيكون مشهداً كونياً فريداً بآيةٍ رادعة تصيب القمر، يأتي ما قبْلَ ختْم تاريخ الإنسانيّة.

فالوحدة الموضوعيّة والسياق، نسيجٌ، أُصيب بآفة الخلط وعدم الدقة لدى كثير من المفسّرين والباحثين، حين تُنزع الآية من سياقها ونسيجها كالتفسير المُبعثر لآيات **(وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ)**(الفجر:1، 2) ولمْ يأبه لاسم السورة ولا لموضوعها وسياقها ووحدتها وجزّأت تجزيئا وقطّعت أوصالها.

وحين يُعْمَد إلى آية **(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**(البقرة:106)، ينبرى للاستدلال بها على النسخ في الشريعة الخاتمة ما بين آية قرآنيّة وأختها أو بين قرآن وسنّة، بلا أدنى مراعاة لنسيج الآية وموضوعها الذي يتحدّث عن محطّات الملل السابقة من أهل الكتاب ومجيء الملّة الخاتمة بأحكامها وآياتها المهيمنة لتستبدل أو تستتبع ما لدى الشرائع السالفة، إذ الآية السابقة لها هي **(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)**(البقرة:105)، **(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ..)**، وكذلك الاستدلال بآية **(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)**(النحل:101) دعماً لنسخ الأحكام، بغضّ النظر عن السياق، وأنّ الآية مكّية وخطابها مع المشركين ولمّا تنزل أحكام الشريعة بعد إلاّ اللمم. هذا لا يعني شطب "النسخ" من مفهومنا، لكن

ينبغي تعديله على وفق الميزان القرآني لا وفق مـــا قيـــل واشـــتُهر، وتجويد طلب دليله ومعناه من مظانّه، وقد بيّنا ملمحاً منه فيما سبق.

بل وينبغي مراعاة كــلّ مميّـــزات الآيـــة اللّغويـــة ودلالات مفرداتها وضمائرها وأخذها بقوّةٍ بالتحليل والفرز والفحص، خُذ مثلاً (**وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ**)(النساء:15)، (**وَالَّـــذَانِ يَأْتِيَانِهَـــا مِنْكُمْ**)(النساء:16)، بدأ بضمير جمع مؤنّث، أعقبه ضمير تثنية مذكّر، لماذا؟، هذا ما تاه فيه المفسّرون، شكر الله سعْيَ المخلصين منهم[1].

القاعدة السابعة: الضمائر في القرآن

التعامل مع ضمائر كلام القرآن كما هي في اللسان العربـــيّ بلا تبديل لكلام الله. القرآن الموحى، جرى تفصيلُه بنظـــام خـــاصّ، فباعتباره آخر كتاب، جامعٍ ومهيمن، فقد ضُمّن الحقائق كلّهـــا التـــي يحتاجها البشر للمسيرة السويّة العُليا إلى قيام الساعة، أمّا على صعيد صياغته اللغويّة فقد انصاغ بلسانٍ عربيّ مبين وفق قواعـــد العربيّـــة الصحيحة، لا حسب الشواهد الشعرية[2]، ولا كلام العرب أيّا كانوا، بل

---

[1]– سنتعرّض لتفصيل هذا الفرق عند بحث موضوع: "**التلاوة**" ضمن تطبيقاتهـــا، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[2]– تمعّن فيما يقوله العالم الجليل ابن فارس، في تعليقه في باب القاف والألـــف، مادّة (قبر)، وقد تنبّه لهذا الأمر العظيم، فاستشهد بقوله سبحانه (ثمّ أماته فأقبره)،

العربيّة الطبيعيّة الصحيحة التي تكلّم بها أفصح العرب محمّـد (ص) وينبغي أنْ يتكلّم بها فصحاءُ قريش وأقحاحُ العرب، هذا على مستوى **القواعد والنّظام**، أمّا على مستوى **مفردات الكلمات** (وجوداً ونُطقـاً) فهي من اللغة العربيّة "قبائل العرب" المخزونة في لسان محمّد (ص)، لأنّ لهجة قريش لم تلمّ بكلّ مفردات العربية قاطبة، أو قُلْ الحـصيلة التراكميّة القرشيّة لا تساوي حصيلة اللـسان العربـي كـاملاً علـى مستوى المفردات، لكنّ المُختار محمّداً (ص) أوتـي جوامـع الكلـم واختُصِر له الكلام اختصاراً.

وما دمنا تطرّقنا للضمائر، فنُثبت هنا أهمّ قاعدةٍ مستقرأةٍ مِـن كتاب الله وموافقة للسان العربيّ المبين، التي أخـلّ بهـا المفـسّرون قاطبةً وهُتِكَ بها نظام اللسان العربيّ فلمْ يعُدْ النصّ يشفّ عن معنـىً أكيد، تلك التي لو أُعيد النّظر فيها فقطّ لتغيّر النّظر إلـى كثيـرٍ مِـنْ العقائد ولسقط نصفُ التفسير الموجود بين أيدينا، ولانحسمت أمـورٌ كانت محلّ نزاع تاريخيّ في مسائل: ماهيّة الوحي، خلـق القـرآن، قصّة الخلْق الأوّل، دور الملائكة وإبليس، فلسفة الوجـود ونظامـه، التوحيد والوسائط الربّانيّة، ومعنى خلافة الإنسان.

ثمّ عقّب: (ولولا أنّ العلماء تجوّزوا في هذا، لَما رأينا أنْ يُجمَع بين قول الله وبين الشعر في كتاب، فكيف في ورقةٍ أو صفحة؛ ولكنّا اقتدَيْنا بهم، والله تعالى يغفـر لنا، ويعفو عنّا وعنهم) هذا ما كتبه! ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ص841.

القاعدة هي[1]**: التعامل مع ضمائر كلام القرآن كما هي في اللسان العربيّ بلا تبديل لكلام الله، المفردُ مفرد، والمثنّى مثنّى، والجمْعُ جمع، وضمير المتكلّم متكلّم وهو غير ضمير الغائب وغير ضمير السامع،** لا بالتخريجات والإبدالات والإحالات البلاغيّة الموهومة، بهذا التصوّر فقط نستطيع أنْ نقرأ القرآن كما نزل، ببساطة التلقي، ونعرف القرآن كيف نزل، وبماذا نزل. فلو قرأنا:

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * .. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * .. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * .. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)(سورة هود: 69-76).

وسألنا: رسلُ مَن التي جاءت لإبراهيم (ع)؟ لقال المفسّر: رسل الله! قلنا: لماذا لمْ يقل: "رسلي" كما قال **(لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)**(المجادلة: 21)؟! قالوا تعظيما وتفخيماً لنفسه تكلّم عن نفسه بالجمع!! قلنا: "**لأغلبنّ أنا ورسليّ**"، أولى بالتفخيم والتعظيم.

[1]- هذه القاعدة لو أردنا التفصيل فيها لاحتاجت إلى كتابٍ كامل هو علمٌ بحدّ ذاته، فنرجو أنْ تنفع الإشارة، ليتحقق منها الباحث والقارئ.

وسألنا: مَنْ قائل هذه القصّة كلّها للنبيّ (ص)؟ لقال المفسّر: الله سبحانه! قلنا: الله يقول: "**يُجادلنا في قوم لوط**" فهل الله العليّ يُجادِل؟ وهل الله الواحد "جمْع" – مع عدم اعترافنا بالتفخيم المزعوم الذي لا ضابط له؟ وكيف يقول الله لإبراهيم "**إنّه قدْ جاء أمرُ ربّك**" متكلّماً عن غائب؟ ثمّ نقرأ بغصّتنا بعدها قصّة لوط: (**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**)(هود: 82، 83)، والسؤال يتكرّر مِنْ القارئ العربيّ:

مَنْ المتكلّم (الجمع) الذي يقول: "فلمّا جاء أمرُنا جعلنا"؟ يُجيب المفسِّر: هو الله تعالى المفخِّم نفسَه! قلنا: كيف يكون هو الله ثمّ يقول: "مسوّمةً عند ربّك"، يتكلّم عن نفسه جمعاً ثمّ بضمير الغائب أيضاً، لِمَ لا يقول "مسوّمةً عندي"، وعلى الزعم بالتفخيم "مسوّمةً عندنا"؟!

ثمّ نواصل القراءة: **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** (هود: 101)، ونسأل مجدَّداً السؤال نفسه: المتكلّم يقول (بضمير المتكلّم الجمع): "وما ظلمناهم"، لكنّه يتكلّم عن "الله" وعن "أمْر الربّ" بضمير الغائب المفرَد، فإذا كان اللهُ

المتكلّمَ والضمائرُ كلُّها راجعةً إليه لَمَ لمْ يقلْ: (وما ظلمتُهم– مِنْ دوني – جاء أمري)؟!

للمفسّرين إجابات ومناورات وتخريجات وأقوال، خُلاصتها تقول أنّهم لا يملكون جواباً، لأنّهم ببساطة خرجوا عن نظام اللّغة بأثرٍ من العقيدة. ولو راجعتَ القرآن كلّه لرأيته بهذا النسق ولقام ألفُ إشكال وسؤال في وجْهك، افتحْهُ مِنْ أيّ صفحةٍ فيه واقرأ، ستجد السؤال مستعرضاً: لماذا أسقطنا الدلالة العربيّة لضمير الجمع، وضمير الغائب، منْ تفكيرنا، فقط حين نقرأ القرآن؟!

بهذا الوعي فقط يستطيع المفسّر أنْ يعرف ماهيّة وكيفيّة "كلام الله"، وأنْ يفرّق بين "كلام الله" و"قول الله". فنحن نرى أنّ القرآن دقيق وعميق، والله – كما يقول العقل وتقولُ اللغة – لا يتكلّم عن نفسه بضمير الجمع، ولا بضمير الغائب أبداً، لدينا آيةٌ محكمة تقول: (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**)(الشورى:51)، هذه الآية لا تقبل التأويل ولا الاستثناء لأنّها مِنْ أصول الكتاب (أمّ الكتاب) ومحكماتِ آياته وثوابت الاعتقاد، وهذه الآية نفسها ليست مِنْ الله مباشرة بل مِنْ الرسول الملكيّ المُوحي بإذن الله يتكلّم فيها عن الله (بضمير الغائب) بإذنه سبحانه. أمّا الزّعم بأنّ الله يتكلّم عن نفسه أحياناً بصيغة الغائب تنزيهًا، وبضمير الجمع تعظيماً وتفخيماً، على

عادة عض الملوك[1]، فهذا من التخريجات واللف على النصّ العربـــيّ

---

[1]– ومن المشكوك فيه أنّ عادة الملوك هي دائماً هكذا عند تحدّثهم، بل الأغلب أنْ الخطاب ممّن هو دونهم يأتي أحياناً تجاههم بهكذا تبجيل، وقد ضرب لنا القـــرآن أمثلةً كثيرة عن ملوكٍ يتكلّمون بصيغة المفـــرد، وإذا تكلّمـــوا بـــالجمع فيعنـــون سلطانهم أي يُشركون (أنفسهم وجنودهم وأهل ولايتهم)، فرعون مـــثلاً (وَنَـــادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِـــي أَفَلا تُبْصِرُونَ)(الزخرف:51) ضمير متكلّم مفرد، (فَقَـــالَ أَنَـــا رَبُّكُـــمُ الْـــأَعْلَى)(النازعـــات:24) نمرود: (قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)(البقـــرة:258)، ســـليمان (ع) (اذْهَبْ بِكِتَابِي)(النمل:28)، (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)(النمل:38)، وحين قال: (وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَـــا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)(النمل:16) فيقصد نفسه وأباه داوود (ع) لقول القرآن (وَلَقَدْ آتَيْنَـــا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّـــهِ الَّـــذِي فَـــضَّلَنَا عَلَـــى كَثِيـــرٍ مِـــنْ عِبَـــادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)(النمل:15) ، الملكة بلقيس (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ)(النمل:32)، (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)(النمل:35)، ذو القرنين (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَـــأَعِينُونِي بِقُـــوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً)(الكهف:95) وحين عنى ذو القرنين ســـلطانه وقوانينـــه ونظامه والقائمين معه عليه قال (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُـــهُ)(الكهـــف:87)، (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)(الكهف:88) بضمير الجمع المتكلّم، وعلى الاحتمالين ليس في الأمر تعظيم، فالمسألةُ إمّا انفراد وإمّا شرْكة وسلطنة جماعية، وليس في الخطاب تفخيم وأُبّهة.

فالأمر الخطير أنّ المفسّرين أمضوا تخريجهم علينا إمضاء المسلّمة بعبارة واحدة "وهذا جرياً على عادة بعض الملوك"، لنغضّ الطرف عنها، وقد فعلنـــا دهـــراً، فعُمينا.

على أنّ تنزيل الخطاب الإلهيّ وقياسه على المزعوم مِن عادة خطابات الملـــوك، هو من الأخطاء الأصيلة الأخرى، التي تجعل الله سبحانه ليس فقط متكلّماً بلغتنـــا العربيّة لإفهامنا الحقائق، بل ويتطبّع بعاداتنا وعادات العرب أيضاً، وهو إنْ لـــمْ يكن مِن تصوّر تجسيم الذات الإلهيّة ففرعٌ عنه، وكلام الله تعالى يتـــسامى عـــن هذا، فإذا كان في كلام العرب التمويه والتوْرية أو أيّ عادة غير صحيحة فلـــيكن في كلام الله ذلك ما دام جارياً على عادة بعض العرب!! وإذا جاء مـــسلمٌ اليـــوم

الذي لا يأتيه الباطل، وهي لا ضابط لها ولا معيار يُقاس، ومنْ يستقرئ كتاب الله كلّه، سيرى أنّ العكس في الاثنيْن هو الصحيح، فآياتُ المفرَد كانت أولى بالتعظيم والتفخيم والمهابة والعزّة، وآيات التنزيه ما جرتْ إلاّ على لسان غير الله، ولمْ يقل سبحانه مرّةً واحدة "سبحاني" أو "سبحاننا". بل والأدهى أنّ استقراءنا لكتاب الله يرينا بعين الحقيقة أنّ الله سبحانه حين يكون مدعوّاً، معبوداً، فالصيغة مفردة دائماً.. وأبداً، فلماذا لا يُفخِّم العبدُ ربّه ويعظّمه قائلاً: (لا إله إلاّ أنتم) و(سبحانكم) و(الحمد لكم) و(ربّنا عليكم توكّلنا وإليكم أنبنا)، (إيّاكم نعبُد وإيّاكم نستعين) .. لماذا؟ لماذا الخطاب مِن أسفل لأعلى يتّخذ طابع التفريد المحض، والخطاب مِنْ أعلى يتّخذ النوعين، لكنّه في خصوص العبادة والدعاء والتأليه يصرّ على التفريد أيضاً ودائماً؟

ولغته ليست العربية ليسأل: لماذا الله يتكلّم عن نفسه كأنّه جماعة وهو يقول أنّه واحد؟! فجوابنا الموروث له هو: هذا على طريقة بعض ملوك العرب، ونسوق له شواهد الأشعار دليلاً على كتاب الله الذي لا هو بشعرٍ ولا بوهْمٍ ولا بتمويه!! فهل الله سبحانه عربيّ بعوائد عربيّة ما أنزل الله بهذا سلطاناً؟ وهل عادة بعض أولئك الملوك من العرب أو غيرهم (إنْ صحّت) تُلزمه سبحانه وتُؤثّر فيه وهو الذي ذمّ عوائدهم؟ وهل نحنُ لا نفهم التعظيم ونستشعره بدون تفعيل هذه العادة التي لا داعي لاستعمالها؟ ثمّ هل هي عادة حسنة أم عادة جبابرة؟ ولماذا كانت آيات إفراد الضمير في القرآن أشدّ عظمةً في النّفس وأوقعُ أثراً ومهابةً من ضمائر الجمْع؟
وباعتبار أنّ القضية منهجية وأصيلة في الكتاب كلّه لا جزئيّة قصصيّة واحدة، فالسؤال الهامّ الذي هو مفترق الطريق: هل أنّ القرآن نزل بلسانٍ عربيّ مبين لنفهمه بتتبّع هذا اللّسان، أم أنّه نزل بالشاذّ الخفيّ من عادات بعض الملوك لنفتّش عنها؟ هل علينا أنْ نبحث في الخطاب القرآني عن المائز اللغويّ ودلالاته، أم عنْ عادات تاريخيّة تحكم مناسبات صدور مثل هذا الخطاب بين بني البشر؟!!!

ربّما يُقال جواباً: توخّياً مِنْ الشرك وظنّ التعدّد!

قلنا ردّاً: أنّ الشرك وظنّ التعدّد يأتي من العبارة الربّانيّة أوقع وأثبت مِنْ عبارة عبادِه العبيد، فكان الأولى نفيها من مساحات الخطاب العُلويّ لا السُّفليّ، فينبغي شطب: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ**)(الأنعام:42)، (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)(الحجر:9)، (**وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**)(مريم:40)، (**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ**)(الصافات:11)، (**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**)(يّس:12) وعشرات المئات أشباهها، وتُستبدل بـ : (ولقد أرسلتُ) (إنّي أنا نزّلتُ) (وإليّ يُرجعون) (إنّي خلقتُهم) (وكلّ شيء أحصيتُه) .. صيانةً للتوحيد!. والحقّ نقول؛ لو قرئ كلام الله كما نزل بلا مزايدات، لما أشكل علينا التوحيد ولما نسفنا معارف القرآن خوفاً على "التوحيد" الذي لمْ يُستلّم بدوره مِنْ كلام الله!

ونزيد الأمر بياناً ممّا كان ينبغي أنْ يستثير كوامن عقول المفسّرين الفذّة التي وقع معظمها ضحيّة وراثة قاعدة، قوله تعالى: (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ**)(الواقعة:85)، (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**)(قّ:16) فاختلفوا -المفسّرين- في تعيين مَنْ هو هذا الذي هو "**أقرب**"، أهو الله تعالى؟ فاتّفقوا (عقائديّاً وهو صحيح) على أنّ الله ليس أقرب من شيء دون شيء، سبحانه قريبٌ فحسب (**فَإِنِّي**

قريبٌ)(البقرة:186)، ذلك أنّ له معيّةً أزليّةً أبديّةً مع كلّ شيء: (**وَهُوَ مَعَهُمْ**)(النساء:108)، (**إلاّ هُوَ مَعَهُمْ أيْنَ مَا كَانُوا**)(المجادلة:7)، (**وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَ مَا كُنْتُمْ**)(الحديد:4). والحقّ، أنّه سبحانه أقرب من كلّ قريب لا بالجسم والمكان بل بالإحاطة والوجدان وبما وصف نفسه به، فوجوده هو الوجود الفعليّ وهو الوجود الذي لا يخلو منه مكان ولا زمان لأنّه علّة العلل ونور الأشياء فلا يغيب عن شيء ولا يغيب عنه شيء، ونحن إذا تعرّينا عن كلّ مكابراتنا وجلود شخصيّاتنا لما وجدنا فينا شيئاً إلاّ ويذكر الله، وما من فكرة إلاّ وتتساق إلى الله، إحساسنا وشعورنا الذي هو الحياة نفسها مبعثه الله ومنتهاه الله، الرغبات والمخاوف التي تسكننا وتجتاحنا يُنشئها الله وما من إجابة لها وتسكين إلاّ لدى الله، فالله هو القريب فعلاً، أقرب منّا إلينا.

إذن، فمنْ هو هذا (هؤلاء) الـ "أقرب" إلينا حسب منطوق الآية؟ البعضُ قال نقدّر أنّ الله يقول: "نحنُ أقرب إليه بالعلم" "نحنُ أقرب بالقدرة"! ولا ندري -ردّاً على هذا- لِمَ لمْ يقلْ سبحانه "ونحن أعلم به/ أقدر عليه"؟!

الأمثل طريقةً وعوا أنّ القرب هنا قربٌ محسوس بدليل مقارنته مرّةً بالمحيطين بالمحتضر، ومرّةً بحبل الوريد، وكلاهما مادّيان لا معنويان، فقالوا: عنى اللهُ "ملائكته"، لأنّ الأقربيّة المكانيّة الموصوفة مستحيلةٌ على ذات الله، بل هي لملائكته التي تأتي عند

الموت وتحفّ بالمحتضر وهي أقرب إلى الميّت منْ أهله الحاقين به مع أنّا لا نبصرها، كما بيّن في (سورة الواقعة 85 أعلاه) وكما قوله: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ)**(الأنعام:61)، **(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)**(السجدة:11). وحين نهض الإشكال ثانياً: كيف يقول الله عن نفسه أنّه "**أقرب**" وهو يعني ملائكته؟

قالوا: أنّ هذا جارٍ في لغة العرب، فإنّ الملِك يأمر جنوده بالغزو فإذا تمّ الانتصار يقول: انتصرنا وهزَمْنا العدوّ، وهو لم يخرج مِنْ قصره!

قُلنا: أنّ الملِك وجنوده سواءٌ، هو كأحدهم، ومنْ نفس الجنس، يصدق عليه ما يصدق عليهم، وكان يستطيع الخروج معهم برجليْه وربّما فعَل، ولكنّكم قُلتُم آنفاً أنّ تلك "الأقربيّة المكانيّة" مستحيلةٌ على ذات الله منْ أصل لأنّه بكلّ شيء محيط، ولأنّ معيّة الله مع الجميع سواء، هو معنا أينما كنّا، والقرب المكاني المُقاس بوحدات المسافة ونِسَب المكان، هو صفة خاصّة بالمخلوق كالملائكة فقط، اللهُ منزّهٌ عنها، فكان ينبغي أنْ يُقال: "وهُمْ – أيْ ملائكتي– أقرب إليه منكم"، "وهم أقربُ إليه من حبْل الوريد"؟!

ثمّ هل أنّ كلّ ما يأمر به الملكُ جنوده يستطيع أنْ يشمل نفسه فيه، فلو قال لهم "احلقوا رؤوسكم" فأطاعوه، أيصحّ منه أنْ يقول "نحنُ حلقْنا رؤوسنا" وهو لمْ يفعل، والأدْهى، ماذا لو كان المخاطَب كائناتٍ مطيعةً له لا منْ جنسه، بل مُلك يمينه، خيولاً مثلاً، فقال لها بالإشارة "اركضي في المضمار واصهلي" فركضتْ وصهلتْ، أيليق به أنْ يفخر "ركضْنا في المضمار وصهلنا!"، على عادة ملوك العرب؟! نأملُ أنّ الأمر قدْ وضح.

فهم بنباهتهم ومنطقهم العقليّ أدركوا أنّ المعنيَّ في الآيات هم الملائكة لا غيْر، وأدركوا باعتقادهم الصحيح أنّ ذلك مستحيلٌ على الله، كإدراكهم أنّ إبراهيم (ع) ما جادل إلاّ الملائكة التي أتته وأنّ الله لا يُجادَل بحالٍ في: (**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ**)(هود:74). لكن كيف يفكّون عقدة الآيات لتُوافق العقل والعقيدة؟!

هذا ما انغلق عليهم بابُه بالمرّة لأنّهم يعتقدون أيضاً أنّ المتكلّم هو الله مباشرة، لَمْ يرونه أساساً كلاماً مِنْ ملائكة الوحي الموكّلين بمسيرة الإنسان خَلْقاً وتعليماً وإماتةً وبعْثاً وحساباً، أي ليس أنّ كلام الله كان إخباراً عن ملائكته، بل العكس هو الصحيح أنّ وحي الملائكة المُدبّرين هو المعدود كلاماً لله، هذه هي الكيفيّة المتاحة لنا كبشر من ثلاث كيفيّات، للحصول على ما سمّاه القرآن "كلام الله"

والاتصال بالخالق، والقرآن كلام الله جاء بالكيفيّة الثالثة **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا 1- وَحْياً أَوْ 2- مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ 3- يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ* وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ)**(الشورى: 51-52) فالرسل الملائكيّة تُوحي الكتاب بإذن الله، والذي تُوحيه يُعدّ تكليماً من الله للبشر، والقرآن كلُّه بهذه الكيفيّة، هكذا عقّبت ملائكة الوحي: **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ...**

فالله صريحاً يُخبر أنّ ملك الموت موكّلٌ بنا، فكذلك هناك الحفَظة وهناك ملَكُ الوحي، وحين نقول الله يُخبر، والله يقول، فبالكيفيّة التي بيّنها القرآن، لا بالكيفيّة التي تصوّرناها، أيْ الله يقول عبر وسائطه وعلى ألسنتهم، وهذا ما بيّنته الآية التي يدعو بها الدّاعون: **(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)**(آل عمران:194)، فالوعْدُ من الله لكنْ على الرسل الملائكيّة أوّلاً والبشريّة ثانياً، فوعْدهم وعد الله، وكلامهم كلامه.

لذلك تلاحظ أنْ لا أحدَ من المفسّرين، لغياب هذه الحقيقة ولاحتجابها، بل ولرفضها، قدْ أشكل على علّة كون خطاب الفاعل أتى بضمير الجمع، لمْ يُكلّفوا أنفسهم عناء هذا السؤال بالمرّة؛ لِمَ صِيَغ الكلام في الآيتيْن بضمير الجماعة: **(وَنَحْنُ أَقْرَبُ) (خلقْنا، ونعلمُ،**

ونحن أقرب)؟! فلذا لَمْ يأتِ على بالهم أنّ ملائكة التدبير هي نفسها تقول (**ونحنُ أقربُ إليه**).

وخطاب الملائكة ذلك، الذي وثقه القرآن بضمائره لنُدرك الحقيقة، هو كأخته الآية الخطابيّة: (**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**)(الصافات:165، 166) فالذين يقولون أنّهم الصاقون والمسبّحون ليس الله تعالى بل عباده المكرمون هم الذين تكلّموا بسورة الصاقات كلّها من ألِفها ليائها، بل والقرآن كلّه لقولهم لنبيّ الأمّة (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**)(الحجر:87)، وأخبروا بحقل تدبيراتهم ووظائفهم الكونيّة فيما يتّصل بنا من بداية سورة الصاقات التي سُمّيتْ بهم لآخرها، هم الذين كانوا الأعينُ الربّانية التي حرستْ نوحاً (ع) وأوحت إليه صنع السفينة (**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**)(المؤمنون: 27)، (**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**)(القمر:14)، تلك الملائكة الكرام التي كان نوح (ع) على اتّصالٍ معها[1] وطلب من الله معونتها وحراستها (**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**)(الصافات:75) لاحظ أنّها سورة "الصاقات" نفسها،

---

[1]– هذه العلاقة بين نوح (ع) وبين الملائكة المدبّرة، بيّنتها نصوص التراث الديني العربيّ منذ "سومر" الذي سمّى "نوحاً " "زيوسدرا" سيّد الكوخ، والبابلي الذي سمّاه "أوتونفشتيم" أو حافظ النّفوس، وسمّاه القرآن "نوحاً" أي "نوخاً" المنيخ والهابط بسلام، وفي مدوّنة التوراة (مع تحريفها) أيضاً بيّنوا هذه العلاقة القريبة، ثمّ أثبتها القرآن الكريم.

والله الفرد الصمد الذي ليس كمثله أحد ليس "**المجيبون**" بـل "**قريـبٌ مجيبٌ**"، فقطّ لنؤكّد أنّ المتكلّم في سورة الصافات هم هم، فليراجعْهـا مراجعٌ ليتأكّد.

وكثيرة هي الآيات التي تستوقفنا كمحطّاتِ مراجَعة لكنّا نمـرّ عليها معرضين، كقوله: (**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَـاتَّبِعْ قُرْآنَـهُ**)(القيامـة:18)، فيفسّرونها أنّ المراد به قراءةُ جبريلٍ القرآنَ على رسـول الله (ص)، فنقول: هو جبريلُ (ع) فعلاً الذي قرأ، بغضّ النظر كيف قرأ، لكنّـه أيضاً جبريل صاحب العبارة القرآنيّة كلّها مِن ألِفِها ليائِها، هو الـذي يقول: "**فإذا قرأناه**" لا أنّ "الله" سبحانه قالها ومراده "جبريل"، والقرآن ككلّ هو من عند الله حتماً، لكنْ كيف؟ فكمضمون هو مـن الـرّوح واللّوح المحفوظ والملأ الأعلى، وكتفصيل ونظْم هو مِن قراءة ملائكة الوحي وجمْعهم (ع)، هذا تماماً ما أوضحته هذه الآيـة ذات الأربـع كلمات (**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**)، فجبريل (ع) هو أحد الرسُل الملكيّة التي أرسلها الله لتُوحي بإذنه ما تشاء إلى نبيّه العظيم محمّـد (ص)، وعلى عاتق جبريل تمّ ذلك، ولهذا أخبر القرآن (**إِنَّـهُ لَقَـوْلُ رَسُـولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**)(التكوير:19، 20) هذا كـلام المدبّرين عنوا به جبريل.

ولو قد قرأنا سورة مريم من أولّها لآخرها لرأينـا كـلام الله عبر هذه الكيفيّة الوحييّة الملائكيّة، حيث الحديث عن الله كذاتٍ عليّـة

كطرفٍ ثالث مُوحَّد، والمتكلّم بضمير جمع المتكلّم دائماً هم ملائكة الوحي، الذين سيقولون (**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً * وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً**) (مريم:63،64)، التي اعتسرت على المفسّرين وراحوا يلوونها. ففتّش في تفسير هذه الآيات فلن تجد تفسيراً يليق بها وباللسان العربيّ إلاّ إذا أرجعت الضمائر كما هي في اللسان العربيّ[1].

كان علينا أنْ نكتشف تبعاً للتغاير في الضمائر حقائق معيّنة، ولكنّا بدّلنا فيها ولويناها فكيف سنكتشف ذلك إذا صار "نحن"="هو"،

[1]- والغريب أنّ الإمام عليّاً (ع) قد سبق وأشار إلى هذا الأمر، ولمْ يأخذ به أحد، فرُوي عنه ما نقتطعه مناسباً لهذا المقام بعيداً عن الخصومات المذهبيّة: (وأمّا ما كان من الخطاب بالانفراد مرّة وبالجمع مرة، من صفة الباري جلّ ذكره فإنّ الله تبارك وتعالى على ما وصف به نفسه بالانفراد والوحدانية هو النور الأزليّ القديم الذي ليس كمثله شيء لا يتغيّر ويحكم ما يشاء ويختار ولا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، ولا ما خلق زاد في ملكه وعزّه، ولا نقص منه ما لم يخلقه، وإنما أراد بالخلق إظهار قدرته، وإبداء سلطانه، وتبيين براهين حكمته، فخلق ما شاء كما شاء، وأجرى فعل بعض الأشياء على أيدي من اصطفى من أمنائه، فكان فعلهم فعله، وأمرهم أمره، كما قال: "من يطع الرسول فقد أطاع الله". ... وفرض عليهم من طاعتهم مثل الذي فرضه منه لنفسه وألزمهم الحجّة بأنْ خاطبهم خطابا يدل على انفراده وتوحّده، وبأنّ له أولياء تجري أفعالهم وأحكامهم مجرى فعله، فهم العباد المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. هم الذين أيدهم بروح منه، وعرّف الخلق اقتدارهم على علم الغيب، بقوله : "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول"..). المجلسي، **بحار الأنوار**، ج 9، ص117.

"هو" = "أنا"، "نحن" = "أنا"، الواحد = أربعة[1]؟ كان أمامنا لوحةٌ لرسّامٍ شهير وفي أعيننا ما يُشاغب رؤيتها بجمالها، فبدلاً من تعديل رؤيتنا ومسح أعيننا وتنظيفها، أخذْنا الفرشاة (مع أنّا لا نُجيد الرّسم) وأجرينا التعديلات اللازمة في اللّوحة التُّحفة، والمؤسف أنّه ما مِن تعديلات كانت لازمةً على لوحة الفنان القدير!

لقدْ نصّ "فرانسيس بيكون" على فكرة أنّ الإنسان لن يستطيع السيطرة على الطبيعة إلا عن طريق اكتشافها بالعلم، ولكن لكي يفعل ذلك ينبغي أن يخضع لها! بمعنى آخر: لكي نفهم القوانين التي تتحكّم بالطبيعة ينبغي أن ندع <u>الطبيعة تتكلّم لا أنْ نتكلّم بدلاً عنها</u>، هذا هو الدرس الكبير الذي وعته أوروبا بعدئذٍ واستطاعت عن طريقه أن تفهم قوانين الطبيعة وتسيطر على العالم عن طريق التكنولوجيا المدنيّة والعسكريّة.

القرآن والطبيعة والأنفس، أمرٌ واحد، آياتٌ ينبغي الخضوع لها لاكتشافِها لا اختراعُها ولا تفكيكُها ثُمّ تأليفُها. وإنْ كان ثمّة معاناة

---

[1]–(نحن = هو) كقوله ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾(القصص:46)، لديهم أنّ ضمير المتكلّم الجمع (نادينا) (هو) الله = (ربّك) الغائب.

(هو = أنا) كقوله (وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)(القصص:70) لديهم الله يتكلّم عن نفسه بضمير (هو) بدلاً من (أنا).

(نحنُ = أنا) كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً) (الإنسان:23) لديهم أنّ الله بدلاً من أن يقول (أنا) يقول (نحن).

في اكتشاف البناء القرآني، فهذا طبيعيّ، وهي معاناةٌ كأختها معاناةِ أيّ مكتشفٍ آخرَ لقانونٍ كونيّ أو طبيعيّ، تتطوّع وتتذلل بعد تجلّدٍ وصبرٍ منهجيّ، ونزاهةٍ، وترويض النفس والعقل للتجرّد ولدقة الملاحظة والتعلّم.

القاعدة الثامنة: دلالة اللامذكور

دلالة اللامذكور، أمرٌ آخر يُوازي في أهمّيته أهميّة المذكور، فلاعتبار أنّ الله سبحانه ما فرّط في الكتاب من شيء و(لا يضلّ ربّي ولا ينسى) فلا يُمكن أنْ نعزو فقدان ما ينبغي وجوده على الاختصار والحذف والفائدة اللغوية المحضة أو أن نقوم بتكلّفها واختراع بديلها، فكما أنّ كلّ موجود لحكمة بالغة فكلّ مفقود أيضاً لحكمة بالغة، و"اللامذكور" ليس المفهوم المصطلح عليه أحياناً "دليل الخطاب"، أو "فحوى الخطاب" و"لحن الخطاب"، كما أنّه ليس "المحذوف" الذي يقدّرونه دائماً، بل ما يُمكن للظنّ/ الوهم أنْ يتصوّره محذوفاً، مع أنّه لا داعي له ويستقيم الكلام (بل لا يصحّ إلاّ) بدون تقديره.

على أنّا إنْ سلّمنا أنّ العقل واللغة يحكمان بتصوّر محذوف مثل مفردات "لسان"، "أهل"، "حبّ أو تقديس" في النصوص القرآنيّة التالية: (**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ**)(آل عمران:194) أيْ على

"لسان" رُسلك، و(**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**)(يوسف:82) يعني اسْأل أهل القرية وإنْ كان معنى القرية هو "التجمّع" السكّانيّ أو العمراني فلا داعي لتصوّر لفظة "أهل" مقدّرة هنا، وإنّ تقدير لفظة "لسان" يُخرج الرسل الملائكيّة من الحسبان ويُذهب بالدقة القرآنية في إعطاء كيفيّة الوحي العلويّة (على) المستوى القلبي لا اللسانيّ، وكذلك (**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**)(البقرة:93) أيْ تقديس العجْل، فهو تسليمٌ فيه نظر، ذلك أنّا بإمكاننا عدم تقديرها أصلاً لأنّ الكلام لدى السامع الفاهم متأدٍّ بدونها، بل صار تقديرها أشبه باللغو والعبث أو احترازاً من وهم الساذج فقط وكتاب الله ليس للساذج والمختلّ، فجملة "اقتل فلانا" هي تامّة ومفهومة من دون داع لتحويلها إلى "اقتل نفس فلان" فهذا بديهي كبداهة "أسمعْني صوتك" وليس التقدير "أسمعْني صوت الهواء الخارج عبر حنجرتك ... وإلخ!"، فبديهي أيضاً أنّ الذي أُشرب في قلوبهم (وهي بواطنهم المعنويّة لا الماديّة) هو صورة العجل والتولّع به والاعتقاد فيه، ولن يذهب أحد حتّى الساذج إلى تصوّر آخر، كما نقول أنّ "الله في قلب المؤمن"، فالتقديرات لا داعي لها من أصل، فكيف بالتقديرات الجزافية التي ملأت كتب التفسير وفتحت المجال لتحريف معنى الآيات بحقائقها ودقائقها، وصارت آياتُ القرآن بالتقديرات المضافة والتقديم والتأخير وتفكيك الآية وإعادة تركيبها بلبنات ليست منها، صارت آيات القرآن

المحبكة تلك فضفاضةً جدّا لتكون شاهداً على حقّ وباطـــل مـــدارس اللغويّين ومذاهب الفقهاء والكلاميّين، ما يُعدّ عينه التفـــسير بـــالرأي الذي نُهي عنه، حتّى أنّك لا تجد تفسيراً لا يخلو من عبارة "والتقـــدير كذا وكذا" يعقب أكثر شرح آيات كتاب الله العزيز! فهل يعني هذا، أنّه ليس في القرآن محذوفات؟

نعم، هذا ما نقوله، هناك إيجازٌ بلاغيٌّ واختصارٌ، كما يـــتكلّم البلغاء والأذكياء، فهذا موجودٌ، وهو من الفصاحة والفطنة، كمن يقول "أعطني ماءً" فيلزم وجود الإناء، الكأس، فلا داعي لوضعه للبلاغـــة ذاتها، وأيضاً لإحكام الدلالة على أمرٍ دون آخر، لأنّه لو قال "أعطني كوباً مِنْ الماء" أو أنّا قدّرنا العبارة هكذا، لعلمْنا أنّه يريد كمّيةً محدّدةً مقدارها كوبٌ من الماء، وهذا البيانُ الإضافيّ غيرُ موجودٍ في العبارة الأولى.

فهناك في كتاب الله شبه هذا النّوع، وفي علم النّحو يقدّرونـــه محذوفاً لتسهيل الإعراب وتقريب الفهم ليس إلاّ، فالمحذوف محـــذوفٌ نحويّ لا غير، وليس تركيبياً ودلاليّاً، والعبارةُ لا تحتاجه لتكتمل، بل ربّما تصوّره يُفسد كما في مثال الكوب والماء أعلاه، وأمثلـــةُ ذلـــك: **(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَـــا دَائِـــمٌ وَظِلُّهَا)**(الرعد:35) بحذف المسند وهو خبر "**ظلّها**"، **(وَإِنْ تُخَـــالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)**(البقرة:220) بحذف المسند إليه مبتـــدأ "**إخـــوانكم**". ومثـــل

حذف مفاعيل المشيئة والإرادة والعلم والشعور **(وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ مَا أَشْرَكُوا)**(الأنعام: 107) لو شاء "عدم شركهم" ما أشركوا، **(قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً)**(فصلت: 14) أيْ "لو شاء ربّنا أنْ نُؤمن بك لأنزل ملائكة"، **(وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)**(الحج: 16)، أيْ مَنْ يريد هداه. **(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**(سبأ:36) لا يعلمون أنّه سبحانه هو ربّ الرزق، **(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ)**(البقرة:12) أي لا يشعرون أنّهم المفسدون حصْراً دون سواهم، فهذا حذف بلاغة لا يختلف في تقديره ذهنياً اثنان سليما العقل.

ومثل حذف أجوبة الشرط المعروفة اختصاراً، التي تأتي استنكاراً **(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)**(الزمر:19) لأنّ الموقف والسياق هو الناطق الآخر المتمّم للكلام، وهذا ما يجعل القرآن حيوياً وخطاباً متفاعلاً مع واقع، انظر إلى:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)(هود:17). فهي صيغة استنكار غرضُها ما قالته فقط.

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(الرعد:33).

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)(فاطر:8).

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)(الزمر:22).

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)(الزمر:24).

فكلّها استنكارات لا تطلب جواباً في الحقيقة لمن عاش سياقها، ولكنّ النحوي يبحث عن الجواب فيقدّره وذلك صحيح نحوياً، لكنْ لا أنْ نقول أنّه محذوف بلاغياً وينبغي تقديره، وهذا مهما كان يعرفه الجميع ويُدركه الذهن ويتوحّد عليه، وهو بخلاف تقدير الكلمات والعبارات المتنازع عليها والمتنافس فيها بين السطور، فذلك لونٌ وهذا لونٌ، ذلك ما أفسد العبارة القرآنية ونحى بها غير منحاها. أنت ترى، أنّ مثلَ تلك الموارد يُدركها العربيّ بذائقته، لأنّها إيجازٌ

معقول، ووضعها إطالة بلا داعٍ، وركاكة، وإزراءٌ بفصاحة اللّسان العربيّ بتحويلها إلى لغة ميكانيكيّة تُخاطب كائناً ضحلاً لا مفكّراً سويّاً.

فرجوعاً إلى القاعدة، لتوضيح مرادنا "باللامذكور"، اقرأ مثالاً قوله تعالى: (**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**)(الصافات:5)، إنّ عدم ذكر "المغارب" هنا، ليس لدلالة "المشارق" عليها كالمتضايفيْن، كيف وقد ذكر سبحانه الاثنين في موقع آخر (**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**)(المعارج:40)؟ فالسرّ هو أنّ السياق الأوّل ينبغي فيه إفقاد "المغارب" منه، لحكمةٍ خافية إمّا أنْ نعلمها أو لا نعلمها، لكنْ لا أنْ نفترض وجود "المغارب" محذوفة ليخفّ وجع الرأس ونرضى بالمكمن المريح، لأنّنا بهذا نُبطل الحكمة بطمسها عنْ عقولنا بالتخريجات السريعة. وهذا عينُه ما قاله المفسّرون في قوله تعالى (**وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ**)(النحل: 81)، فأضافوا - مزايدين- على كلام الله بقولهم: "والتقدير (تقيكم الحرّ والبرد)"! فهل فات على الله سبحانه ذلك؟ وهل كلّما ذُكر الحرّ نُقدّر معه البرد، فلنقرأ قوله سبحانه: (**وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً**)(التوبة: 81) فليكن إذاً التقدير (لا تنفروا في الحرّ والبرد، قل نار جهنّم أشدّ حرّاً وبرداً)!!

لاحظ أيضاً قصّة نبيّ الله سليمان (ع)، إنّه يتكلّم مع "الهدهــد" الذي لا نعلم ماهيّته، لكنّه لم يُذكر أنّه (ع) تكلّم مع النمل، والمراجــع لسياق الآيات يرى أنّ هذه القدرات الاستثنائيّة طلبها سُليْمان وأُوتيهــا لتُوظّف لدعوة الإسلام حصراً لا لملْك الدنيا، حيث بدأ السياق **(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُــونَ)**(النمل: 16، 17). فهو (ع) يــستطيع أن يتكلّم وفْق (منطق الطير)، أمّا فهْمُ ما يقوله النّمــل فيقــع ضــمن **(أوتينا مِنْ كلّ شيء)**، لذلك تبسّم ضاحكا مِنْ قول النملة وقال: **(وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِــي أَنْ أَشْــكُرَ نِعْمَتَــكَ الَّتِــي أَنْعَمْــتَ عَلَــيَّ وَعَلَــى وَالِدَيَّ)**(النمل:19) لأنّ ذاك مِنْ الفضل ولمْ يفعل ذلك بعد حواره مــع الهدهد والجنّ، علاوةً على ذلك أنّ النمل ليسوا مِنْ جنوده ليكون لــه "منطقٌ" معها، فهي محطّة عبور له لا أكثر، أمّــا محطّــاتُ وقوفــه بجنوده فكان حديثه فيها مع الطير والجنّ، لعلّ هذا يفيدنا معرفــةَ أنّ لغة النمل ليست موجيّة صوتيّة (ولا اهتزازيّة ولا إشــاريّة بــصريّة) وليست "منطقاً"، وأنّ عالم النمل بعيدٌ عن التفاعل مع عالم الإنــسان، فلغته كيميائية دانية (فيرمونات)، لا تصلح لتفاعل طرفين إرســاليّ – استقبالي مِنْ عالَمين متغايريْن، ولا يمتلك الإنسان أداتهــا الكيميائيــة بالاكتشاف والتجريب والاستقراء دونما أجهــزة استــشعار ولــواقط

وبحوث مختبريّة عسيرة ومتطوّرة جدّاً؛ ولذلك سمّى القرآن لغة النملة "قالت/ قولها" ولمْ يقل "كلامها/ منطقها" للفرق بين الاثنين كما قد يأتي لاحقاً.

وكذلك **(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ)**(البقرة:261)، كان يقتضي حسب الظاهر أن يكون مثلُ "منفق المال" مثل "زارع حبّة"، لكنّ السرّ كما البلاغة كما الحكمة إنّما في هذا التركيب وعدم تقدير محذوف، ليكون النماء والبركة الإلهية في صاحب الإنفاق لا خارجه، فالعائد المُضاعف ذاتيّ لا إضافيّ.

وكذلك حين دعا القرآن اليهود إلى الإيمان بالرسول العالميّ والتحوّل إلى الملّة الخاتمة خاطبهم **(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)**(البقرة:43)، ولمْ يذكرْ السجود مع الركوع فلا داعي لتقديره، وقدْ خاطب بهما المؤمنين **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا)**(الحج:77)، موظّفاً الركوع فقط كقنطرة شعائريّة تعْبر باليهود مِن قديمهم المألوف والمقدّس لديْهم إلى الجديد المحمّدي الذي يحوي كثيراً من مألوفهم (كتسمية "إبْرَهْمْ" مثلاً)[1].

---

[1]– بل للمرء أن يستغرب حين يلحظ أنّ اسم "إبراهيم" (ع) قد ورد في القرآن 69 مرّة، 15 مرّة منه في سورة البقرة وحْدها، وهي أوّل ما نزل من السّور بالمدينة، حيث دخلت الدعوة في واقعٍ آخر هو المنافسة على إرث ديانة التوحيد

وكذلك قوله تعالى (...**وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**)(يونس:5)، حيث لم يذكر "الشهور" لا فقط لدلالة السنين عليها بالتضمّن والاشتمال، وإن كان القمر كأداة أدلّ في إثبات الشهور لا السنين حسب الظاهر، لكنّ الآية علميّة محضة لا شرعيّة نسبيّة، لذلك كان "العلم" المستفاد مسلّط على "العدد" (أيْ على كمٍّ

بين المِلل الثلاث وأحقية الانتساب إلى إبراهيم (ع)، وفي السورة الكثير من دعوة أهل الكتاب من اليهود، وأمر تحويل القبلة، وليس عجيباً توارد هذا الكمّ من اسم "إبراهيم" في هذه السورة فقط، بل العجيب أنْ يكون رسم هذا الاسم في هذه السورة فقط هو (إبرَهم) مقارباً للفظ "التوراتي" الأوّل (إبـرام)(لاحظ "إبْـرَهْم) وورود 15 مرّة بهذا الرّسم أيْ فقط في "البقرة"، دون سائر سور القرآن حيث وردت بقيّتها 54 مرّة في 24 سورة أخرى مرسومة هكذا (إبرَهيم)، هذا غيْضٌ من فيض ربّما يدلّك – إنْ شِئتَ – على توقيف الرسم القرآني وضبط حروفه، وهو بحْثُ آخر عريض وشائك. ولك أنْ تتأمّل في كتابة الرسم القرآني وموارد اختلافاته في الكلمة الواحدة حسب مواضيعها، خُذْ مثلاً (رأى) قد وردتْ في القرآن 13 مرّة، ورُسمتْ دائماً (رءا) إلاّ في رحلة النبيّ (ص) المعراجية فقد كُتبت (رأى) للرؤية الفؤاديّة للحقيقة كما هي وذلك في قوله جلّ ثناؤه في الموردين: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)(النجم:11)، (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(النجم:18)، والمرأة إذا كانت منسوبة إلى زوج رُسِمتَ "امـرأت" سبع مرّات في القرآن مفتوحة التاء: "(وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ)(القصص:9)، (امْرَأَتُ الْعَزِيزِ)(يوسف:30)، (قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ)(يوسف:51)، (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ)(آل عمران:35)، (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ)(التحريم:10)، (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ)(التحريم:11)، وإذا كانت بغير هذه النسبة الزوجيّة كُتبت "امرأة" بالتاء المغلقة، فوردتْ أربع مرّات: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً)(الأحزاب:50)، (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ)(النساء:12)، (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً)(النساء:128)، (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ)(النمل:23)، .. فتأمّل!

حسابي)، و"الشهر" هو وحدة حسابية بمجموعها تُحسب عدد السنين، فتضمُّنُ "الشهر القمري" إنّما في مفردة "الحساب". وهذا يُفيدنا فيمن هم قابعون في اختلاف الشهور القمريّة أنّ حساب الشهر القمري لا يعتمد على الرؤية البصرية حصراً (الاستهلال)، بل ثلاثة عناصر تدخل في حسابه:

1- نوريّة القمر (الإضاءة)

2- موقعه (منازله)

3- علم السنين (الكبيسة والبسيطة).

وكذلك (**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**) (يس:40)، إنْ قدّرنا عبارتيْن محذوفتيْن في الآيات، هما: "ولا القمر ينبغي له أنْ يُدرك الشمس" – و"لا النهار سابق الليل"، خرجنا بمعنى لا يصحّ. فالذي يفيدنا علميّاً هو عدم تقدير محذوف، بل نُوظّف "عدمَ ذكْره" على أنّ القضيّة العلميّة تتحصر في "عدم إدراك الشمس للقمر" فقط، لاسيّما إذا علمنا أنّ فلك الشمس لا علاقة له بفلك (مدار) القمر كما دلّ ذيْل الآية، وكما هو ثابتٌ علميّاً لدى الطالب العاديّ اليوم، وأنّ نوريّة جزْء وجه القمر المقابل لنا مستفادةٌ مِن شعاع الشمس خلْفَنا، لكنّ الشمس لا تُدْرك وجه القمر المقابل لنا كلّه لتسطع عليه دائماً كحالة البدر، بل

تسطع على الجانب الذي في سمْتها جرّاء حركة فلكيّة للقمــر حــول الأرض لا شأن لها بالشمس، ولو وقف القمر على نقطة فــي فلكــه حولّ الأرض لتوقف شكل إنارة القمر على هيئة إمّا بدريّة أو هلاليّــة أو محاقيّة أو غيرها حسب إحداثيّة النقطة التي جمد عليها، ولتعطّلت عودة الأهلّة والمنازل القمريّة التي بيّنها سبحانه في الآية التي ســبقت هذه (**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَــدِيمِ**)(يّــــس:39) ولتعطّل الحساب الاعتيادي الميسّر بالقمر بمشاهدات تنوّعاته، لــذلك ابتدأت الآية 40 التي نحنُ بصددها بغير حرفٍ عاطفٍ (**لا الــشمسُ ينبغي لها ..**) لتكون تعليليّة للآية قبلها 39، وإنّ أقرب نقطة يُحتمــل أنْ يجمد عليها القمر هــي حــال توسّــطه بــين الأرض والــشمس (الحضيض) عند تكافؤ جاذبيّة الاثنتين (الــشمس والأرض) عليــه، فيجمد في صورة محاقيّة دائمة وهذا هو "إدراك الشمس للقمر"، لذلك جاء "عودة العرجون القديم" –وهو الهلال– معلولاً لعدم حصول هــذا التجمّد المنزلي للقمر بإدراك الشمس له. والآيات لها بحــثٌ طويــل أثبتنا منه موضع الحاجة فقط[1].

---

[1]– الآيات هي: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُــونَ * وَالــشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَــازِلَ حَتَّــى عَــادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَــابِقُ النَّهَــارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(سورة يس: 37–40).

استخلصنا هذه النتيجة لدلالة عدم وجود "المحذوف المتــوهّم" وعدم تقديره، وبهذا يصبح تقديرُ وجود محــذوف مثــل (ولا القمــر ينبغي له أنْ يُدرك الشمس) ضرباً من التخبّط الفلكيّ وضحالة معرفيّة إذ لا سُطوعَ للقمر على الشمس ولا هيمنة جذبيّة بالمرّة، لــذلك فــإنّ مَن توهّم هذا التقدير، صيّر "عدم إدراك الــشمس للقمــر والعكــس" بمثابة "عدم إدراك الليل للنّهار والعكس"، حيث الشمس نهاريّة والقمر ليليّ! وهذا خطأ يراه كلّ مبصر حين يرى القمر والشمس معــاً فــي فجر أو عصر أيّ نهار، لا يصدق مِن هذه التوجيهات ضــمن نــسق هذا التفكير سوى عبارة مخترعة هــي (لا الــشمس تُــدرك الليــل) فحسْب، وهذه بديهة لا نحتاج معها إلى قرآن!

(ونظير "دلالة اللامذكور" هذا في المرويّات، ما روي عــن جعفر الصادق (ع):(**ستصيبكم شبهة فتبقون بلا عَلَمٍ يُرى، ولا إمــام هدى، ولا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق**)، قلت كيــف دعــاء الغريق؟ قال تقول: (**يا الله يا رحمان يا رحيم، يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**) فقلت: يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبــي علــى دينك؟ قال: (**إنّ الله عز وجل مقلّب القلوب والأبصار، ولكن قل مــا أقول لك: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**)[1]، وحسِبَ مَنْ يسوق

---

[1]- الصدوق، **كمال الدين وتمام النعمة**، ص352؛ المجلــسي، **بحــار الأنــوار**، ج52، 149.

هذه الرواية أنّ هذا إنّما للتأدّب بعدم الزيادة والنقصان في ألفاظ الدعاء فحسب، بينما المعنى الواضح أنّ في آخر الزمان سترى أبصارُ النّاس الحقَّ وتعلمه فلا تنقلب، لكنّ الدواخل ورغباتها هي مَن ينقلب على صاحبها فلا تُطاوعه بالمسير إلى الحقّ المُبصَر ومعه، كما بيّن تعالى (**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**)(الحج:46)، فهذا من دلالات اللامذكور.

القاعدة التاسعة: آحادِ كلمات القرآن

علينا أنْ نتيقّن أنّ هناك دائماً سرّاً في آحادِ كلماته سبحانه، وحكمةً مخبوءة، وحقيقةً محتجبة، وإنْ قصُرْنا عن فهمه فلْنُحِلْه على قصورنا اليوم، ليكون لنا في الغد كشفاً، فإخضاعُ بيانِ الله السامي لمداليل تاريخيّة أو رجاليّة أو تفاسير ظنونيّة أو آراء سريعة أو توفيقات وتبريرات إمّا خاطئة أو قليلة القيمة تُفضي بتحصيل الحاصل، يُصيّر كلمة الله سُفلى ويُزري بشرف القائل الحكيم وعلمه المطلق، فالقول بالسجعيّة المحضة كما بيّنا آنفاً في (**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**)(طه:70) هو من هذا، (**وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ**)(الشورى:24) ، (**وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ**)(الإسراء:11)، (**سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**)(العلق:18)، (**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ**

يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ)(القمر:6) بحذف واوات "الفعل"، و(**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً**)(الكهف:64)، (**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**)(الفجر:4) بحذف يائها لا تقتصر للوقف وحسب، و(**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ**)(الحاقة:25)، (**وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ**) (الحاقة:26)، (**مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ**)(الحاقة:28)، (**هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**) (الحاقة:29)، "كتابيه، حسابيه، سلطانيه، ماليه" ليست هاءً للوقف والاستراحة والقافية فقط إذْ أنّ أهل النّار في شأنٍ بعيد عن الاستراحة[1]!، لِمَ لا نقول أنّه قد يعبر عن انفعالٍ يختزن اصطراخاً ونشيجاً أليماً، فإنّ المُعْوِل الداعي بالويل والثبور والنّادب حظّه يمطّ الكلام مطّاً مُوَلْوِلاً، ألا ترى إلى مفرداتٍ مثل "واضيعتاه" "واحُسْراه" وكما حكى تعالى: (**يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**)(المائدة:31)، (**يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ**

---

[1]– من الطريف أنّ بعض المفسّرين أثبت أنّ (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)(الزخرف:77)، لها قراءة أخرى عن بعض الصحابة هي (ونادوا يا مالِ ليقض ..) حيث "مالِ" و "مالُ" ترخيم "مالك" كما أنّ "يا حارِ" ترخيم "حارث" و"فاطم" ترخيم "فاطمة"، فردّ مفسّرٌ ظريفٌ آخر: "أنّ أهل جهنّم بما هم فيه من عنت العذاب والتلوّي أبْعدُ أحدٍ عن الترخيم!" وهذا لعمري، عين الصواب، ونُضيف أنّ الترخيم إنّما هو بين اثنيْن بينهما صُحبة ومعرفة، فأين هم مِنْ "مالك" خازن النّار؟ وأين هم والترخيم المُستريح وشأنهم الاصطراخ فيها والعويل والجأر والدعاء بالثبور؟ هم أقرب لمدّ الكلام والنياح به من التأنّق به وتهذيبه.. (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)(الفرقان:27)، (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)(النبأ:40).

فلاناً خَلِيلاً)(الفرقان:28)، (**قالَتْ يَا وَيْلَتَى أألِدُ وَأنَا عَجُوزٌ**)(هود:72)، وقدْ بيّن سبحانه فداحة هذه الحسرة (**قالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا**)(الأنعام:31)، (**وَأنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ**)(مريم:39)، (**أنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ**)(الزمر:56)، وهذا بخلاف (**فَأمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ**)(الحاقة:19)، (**إنِّي ظَنَنْتُ أنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ**)(الحاقة:20) فإنّ الهاء هنا انفعالٌ كتلك، لكنْ نحو الحبور والانبساط، لوقْع هوْل الفرحة العارمة تُخرج المرء من اتّزانه ليصرخ فيما بين الضحك والبكاء، وياله موقفاً مُريعاً، ويالَها نجاةً أبدية تُقطّع القلب فرحاً لا يُحْلَمُ به ولا يُحتمل، أنْ تنجوَ حين يتساقط النّاس من حولك في النيران الأبديّة المضطرمة، تلك بطولة وفرادة، وقانا الرحمن وإيّاكم، ولقانا النضرة والسرور.

ويندرج في هذا الباب (**بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)(هود:86)، (**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا سُنَّتَ الْأوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**)(فاطر:43)، (**فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأوْا بَأسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ**)(غافر:85)، (**وَإنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأوَّلِينَ**)(الأنفال:38)، (**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَألْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ**)(يوسف:10) "بقيّت الله" و"سنّت الله" و" سنت الأولين" "وغيابت الجبّ" مفتوحة التاء مع وجود

"سنّة الله" مربوطة التاء (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)(الحجر:13)، (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا)(الإسراء:77)، (إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)(الكهف:55)، (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ)(الأحزاب:38)، (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ)(الأحزاب:62)، (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)(الفتح:23) فذلك ليس لغواً أو خطأ إملاءٍ، وأيضاً (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ)(يوسف:32)، و(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)(العلق:15)، بكتابة نون التوكيد المخففة ألِفاً كالتنوين على الاسم ليس عرضيّاً[1]، وكتابة "لكيلا" متصلة مرّةً (لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى

---

[1]– هذه الموارد وغيرها، هل هي فتحٌ لنحوٍ أوْسع يستوعب هذا؟ لإملاءٍ للرّسم أحدث؟ أم هي أكبر؟ فتختزن حكمةً ومعنى، الأوّل قد يُغيّر ويُطوّر مناهجنا النحويّة والإملائيّة، والثاني قد يفتح لنا آفاقاً في الفكر وفي رموز التعبير والتضمين.

إنّ لدينا في النحو "المنصوب على المصدريّة" حيث يقوم مقام الفعل ومفعوله المطلق، مثل (وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود:44) أيْ بعِدوا بُعداً، و(فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)(الملك:11)، (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم:30)، فهل يُمكن أنْ نقول أنّ كتابة الفعل منوّناً هو مُحاكي هذا فيقوم مقام كلمتيْن (فعلٍ واسم) معنىً؟ ومُحاكي النحت في اللّغة مثل (بسملة، جلمود وهي من جلد وجمد، حسبما يُقال!)؟ أو بمثابة تضمّن فعْلٍ معنى فعلٍ آخر كقوله سبحانه (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى)(النجم:12)، فإنّ المماراة تضمنّت المُكابرة لذلك تعدّت بالحرف (على) لا الحرف (في) حيث قال تعالى (فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا

مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ)(آل عمران:153)، (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً)(الحج:5)، (لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)(الأحزاب:50)، (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)(الحديد:23) متصلة وأخرى منفصلة "لكي لا" (لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً)(النحل:70)، (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً)(الأحزاب:37) لا موارد عبثية أو من الصُحّاف والنُسّاخ، وكذا (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ

مِرَاءً ظَاهِراً)(الكهف:22)، وذلك بتركيب شيئيْن بنسبةٍ ما مهما كانت هذه النسبة وتركِ أثرٍ يدلّ عليهما جميعاً.

ففي مثالينا (وليكوناً)، (لنسفعاً) كأنّهما (ليكوننْ كوْناً)، (لنسْفعنْ سفْعاً) لتأكيد الإرادة المطلقة للفعل من قبل المرأة الشغوفة التي أرادت الانتقام لكرامتها وعليائها وإذلال يوسف (ع) ذلاً يتعلّق به بأذيالها، أو عقوبة الله اللامدفوعة –في (لنسفعنْ سفْعاً)– عن المجرمين الخاطئين المتغطرسين. أو ربّما نفترض أنّ إشارة التنوين هي مزجٌ معنويّ بين الفعل والاسم بسكب حركة الاسم – التنوين – على الفعْل، ليكتسب الفعل قوّة الاسم ويُصاغ الاسم بقسوة واستمرار وحركة الفعْل، فيكون مبتغى المرأة لا أنْ يكون يوسف صاغراً لها فقط بضغط خارجي كالسجْن بل لتحويل قناعته أيضاً (غسيل مخّ) أي تحوّل "تكويني" (يكون كوْناً) ليصغر أمامها، تُملي عليه ويرضخ راضياً، كحال مَنْ تمسخ السجونُ أو تنسخ كينوناتهم وشخصيّاتهم. وفي حال "السفْع" لا أنّ الملائكة يقومون بعمليّة السفع والصفع مِنْ بعض ما يقومون به، لا، بل هم الملائكة "الزبانية"، والزبْن – كما السفْع – هي لفظة وحيدة أيضاً في الكتاب (الزبْن هو الدفع)، هؤلاء ليسوا فقط إلاّ للسفع والصفع والدفع والدعّ وجذب النواصي وجرّها، "فالسفع" فعلهم واسمهم "مبرْمجين عليه"، "اسمهم" هكذا و"فعلهم" هكذا وعبادتهم وتقرّبهم هكذا فهل يفتّرون ويسأمون؟! أعاذنا الله من الغطرسة والتجبّر على ضعاف خلقه قبل يوم الحصاد.

فِي الْبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)(البقرة:177)، وأيضاً (**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً**)(النساء:162)، (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(المائدة:69) بنصب(الصابرين)، ونصب(المقيمين) وبرفع(الصابئون) على خلاف المألوف ليس لحناً ولا يحتاج إلى تخريج واهي ترقيعي هو أقرب للاعتذار عن الخطأ، وغايته العليا الإقناع بالصواب، بل نحتاج إلى تفسير نابغ فوق أنّه يُؤسّس لقواعد نحوٍ جديدة، يُفجّر الحكمة في معناها بما يليق بكلام الخبير العليم.

القاعدة العاشرة: المنظومات المعرفيّة القرآنيّة

القرآن نظام متشابك، بعناصر متعددة الأبعاد، ونظم مختلفة متداخلة (أي تداخل المنظومات المعرفيّة القرآنيّة)، فمِن الممكن أنْ تعمل الآية كما الترْسِ في عدّة آلات وعدّة أنظمة، فآيات القرآن ليست ذات بُعدٍ واحد ولا بعدين بل ولا ثلاثة، فبعضها قابلٌ للجمع وفْق أنساق معرفية مغايرة للنسق الأوّل والثاني وغيره، فآية مثل (**تُسَبِّحُ**

لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)(الإسراء:44)، ومثل (**كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ**)(القيامة:26) ومثل (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**)(الأعراف:189) كُلّها قابلة للتحرّك وفق أنساق ومستويات مختلفة تتراوح صغراً وكبراً، مكاناً وزماناً، حسّاً ومعنىً، فمن الخطأ قصْر الآية كلبنةٍ في بناء واحد فحسب أو نظام معرفي أو علميّ واحد، حتّى الآيات الواضحة التي تصف حقيقة معيّنة تحتاج تأويلاً واحداً قد تكون صيغتْ لتعطي مشهديْن أو أكثر، كقوله سبحانه (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**)(البقرة:29)، فالفعل واحد لكنّه وقع في مشاهد متعدّدة، سواءً على مستوى الوجود، أو المجاميع المجرّيّة، أو كواكب المجموعة الشمسية، أو طبقات الغلاف الجوّي، الصورة نفسها تنطبق وتتكرّر لأنّ "السبعة" نظام اكتمال الخلق، وكقوله (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**)(الحج:5)، فهي آية تتحدّث عن مراحل خلق الجنين الإنسانيّ، وهي في نفس الوقت تتحدّث عن مراحل خلق البشر الأوائل على هذا الكوكب ما قبْل مرحلة تناسل الأرحام، لذلك وضعتْ الآية الاحتماليْن بالإشارة "المخلّقة" إنسانياً و"غير المخلّقة" إنسانياً، وهي القديمة. خُذ مثلاً "دولة خليجيّة كالبحرين" هي وحدة في نسيج (مجلس التعاون الخليجي) وهي في الوقت نفسه وحدة عاملة في بناء (الجامعة

العربية) وهي أيضاً عنصر مهمّ في (منظمّة الدول الإسلاميّة) وكذلك منضوية كمكوّن في (منظمة الأمم المتّحدة) عدا الهيئات العالميّة وغيرها ولا من تعارض في هذه الوجودات والتنزّلات، هذا غير كونها وحدةً في وجود بُعديّ آخر هو علم الحضارات حيث لها وجود فيه. وقد تجد إنساناً له موقع حيوي وانتماء في تشكيل أسرة، ومؤسّسة، وهيئة، ومجلس، ودولة، بوجودٍ وبعنوان يختلف عن الآخر، ولو كان ثمّة عضو في الإنسان ينتمي للجهاز الهضمي والعصبي والدموي والتناسلي والعظمي أيضاً، لقُلنا أنّها الآية القرآنية، لكنْ أهمّ ما في الأمر أنْ تكون الآية في مواقع تعمل فيها، لا مقحمة عليها، وإلاّ عاد كتحريف "**الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**".

وغنيٌّ عن البيان أنْ نقول أنّ الآية كما أنّها قد تعمل في مستويات غير مستوى سياقها، فهي أيضاً قد تومئ بزيادة مبانيها إلى معارف أخرى ليست في السمت السياقيّ، وسنضرب مثالاً واحداً لذلك مراعاة للاختصار:قوله سبحانه: (**مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**)(الحشر:5) لقد أورد سبحانه لفظة "النخل" ثلاثة عشر مرّةً في كتابه، وهذه المرّة الوحيدة التي يقول "**لِينَة**" وقال المفسّرون وأصحاب السيَر، أنّ "اللينة" النخل أو الشجر، ونحنُ نُسلّم بذلك، ونسلّم أنّ الواقعة كانت مع بني النضير من اليهود حين غدروا

فأجلاهم نبيُّ الله (ص) عن المدينة وبترَهم أنْ يُجاوروه، لكنّ التـدقيق بالمنظار في الآية يقدح أسئلةً وإشكالات:

- لِمَ سمّى ما قطعوه مِنْ نخلٍ وما أبقوه "**لينة**"؟

- لِمَ أضاف عبارة "**قائمةً على أصولها**" فهذه ثلاث كلمات أضـيفت بلا داعٍ في الظاهر، والكلام مفهومٌ من دونها، إذْ كـان يكفـي (مَـا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا فبإذنِ الله)، القارئ سيفهم أنّ هناك نخيلاً قُطعها المسلمون وأخرى تُركَتْ بلا قطْع، فهل في القرآن حشْوٌ؟

- لنتساهل قليلاً ولْنُبقِ "**قائمةً**" فلماذا أُضيفت "**على أصـولها**"؟ وهـل هناك نخلةً أو شجرة تقوم إلاّ على أصولها؟

- بل السؤال الأدقّ: "**لينة**" مفردة، فلماذا قال "**أصـولها**" ولـمْ يقـل "أصلها" بالمفرد؟ إذْ قال في مقـام آخـر (**كَـشَجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ <u>أَصْـلُهَا</u> ثَابِتٌ**)(إبراهيم:24)!

الجواب: هو الإيماء في كتاب الله، فالآية مع أنّها تقولُ شـيئاً إلاّ أنّـه تُومئ إلى أمرٍ جليل آخر. هي فعلاً في ظاهرها تصف حادثة تاريخيّة ولا ريب، لكنّ هذه الإضافة هي التي تكشف سرّ عقوبة إجلاء القـوم عن ديارهم، مفسّرةً ورابطةً إيّاها ببداية السورة: (**هُوَ الَّـذِي أَخْـرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ**)(الحشر:2)، فالذي لا يقـوم على أصوله يُقطع من جذره، فمن هو الذي لا يقوم على أصوله؟

- خائنُ الوطن المُعين للأعداء عليه وخاذلُه، تُسحب جنسيّته ويُنفى.

- المنقطع عن الله وعن انتمائه له، يقطعه الله عنه ولا يُبالي به.

يهودُ أهل الكتاب لديهم كتابٌ وشريعةٌ تمنعهم من التألب على الصالحين، وتُحرّم عليهم الغدر وموالاة أعداء الله، هذا مِن أصولهم، فإذا خالفوا أصولهم و"**كَفَرُوا**" بها يُقطَعون، أنْ يُعاملوا كأهل كتابٍ وأهل ذمّةٍ وأهل موادعة.

فهذه الآية تُبيّن بخفاء أنّ يهود الجزيرة آنذاك (وليس الآن) لهم أصولٌ صحيحة من شريعة (كتاب)، وأصولٌ صحيحة في الأرض العربيّة لأنّهم عربٌ (سريان) من أبناء إبراهيم (ع)، وأنّ أصولهم تنحدر من الجزيرة العربيّة لا غيرها. لكنْ هذه الأصول الأصيلة قد قُطعتْ حتّى انمحتْ، لأنّهم قطعوها بأنفسهم، خرجوا عنها، فسقوا عنها (والفسقُ الخروج) كما بيّن ذيلُ الآية (**وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**) فأُخزوا بالقطع والرمي خارجاً، خانوا عربيّتهم، خانوا وطنهم (**ديارهم**)، خانوا كتابهم، خانوا الله وخانوا أنبياءه[1]. فقُطعوا من

---

[1]- لذلك زمجر فيهم عيسى (ع) بقلبٍ متقطّع مغتاظ (يا أولاد الافاعي مَنْ منّاكُم أن تهربوا من الغضب الآتي، اصنعوا ثمارا تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأنّي أقول لكم إنّ الله قادرٌ أنْ يُقيم مِنْ هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. والآن قد وُضِعَتْ الفأس على أصل الشجر. فكلّ شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تُقطع وتُلقى في النّار، أنا أعمّدكم بماء للتوبة. ولكنّ الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لستُ أهْلاً أنْ أحمل حذاءه. هو سيعمّدكم بالرّوح القدس وبنار. الذي رفشه في يده وسينقي بيْدره ويجمع قمحه إلى المخزن. وأمّا التبن فيحرقه

جميع ذلك، لكنّ الآية تُخبر أيضاً ببقاء القليل منهم قائمٌ على أصـــوله تلك، و"بنو النضير" إدّاك كانوا شجرةً واحـــدة مـــن تلـــك الأشـــجار انقطعوا من أصولهم فقطعهم الله، لهذا السبب جاءت "أصول" جمعـــاً، و"اللينة" مفردة، وجاءت الزيادات المتساءَل عنها.

ربّما يُدرك المتفكّر الآن لماذا سمّيت النخلة "**لينة**" هنا، فاللينة عربيّاً مِنْ "اللّون"، فهي نخلة، واللّون لون نخلـــة، والنخلـــة عريقـــة وعربيّة وربّانيّة أيضاً، ما يدلّ على عراقة اليهود كعـــشيرة عربيّـــة، لكن مسخ اللّون (قطع اللّينة) وتبديل الصبغة، بالغدر، بترك الانتمـــاء، بالخداع والتآلب، تغيير الهويّة، تغيّر الطباع والأخلاق، هـــذا يُفـــضي لقطّع المرء نفسه من أصوله وفقدانه هويّته إلى شتات، أليس هذا مـــا حلّ باليهود بغضّ النّظر عن تجمّع شُذّاذهم في وطنٍ آخر مغتـــصبٍ الآن يدَّعونه؟!

بلى، وقد وضّح سبحانه في سورة إبراهيم وهو أبـــو شـــجرة المسلمين وشجرة بني إسرائيل (الذين صنع كهنتهم اليهوديّة)، وأبـــو هذه الصبغة (اللّون)، وضّح تثبيت شجرةٍ من جهة (أيْ فئة أصـــيلة) في المنطقة العربيّة، والاجتثاث مِنْ جهة لفئة أخرى خبثت فغـــادرت

بنار لا تطفأ)(**متّى** 3: 7–12) وواضحٌ أنّه (ع) يُبشّر بالنبيّ الأشـــرف والخـــاتم (ص) الذي سيضع حدّاً لطغيان اليهود وسيكون له أمّة مختارة وسيقطع شجرتهم من أصولها ويرميها، وسيُبرّئ عيسى (ع) من افتراءات القالين ثُمّ الغالين.

أصلها الكريم (**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**)(إبراهيم:24،26)، وهذا يُوافق تماماً وحرفيّاً قول عيسى (ع) فيهم المُثبت في الهامش.

القاعدة الحادية عشر: القرآن والتطوّر المعرفي والتاريخي

القرآن له طبقات وقراءات حسب التطوّر المعرفي والتاريخي، فلا ينبغي التعامل مع كتاب الله معزولاً (في قراءته الأولى) عن واقعه التاريخي (السيرة النبويّة) المنزّل فيه، كذلك عنَتاً ومِنْ العبث محاولة تقزيمه في الواقع الحضاري الأوّل، فإنّ له مع القراءة الأولى إنْ استوفتْ نفسها إبّان العصر الأوّل، قراءةً اجتهاديّة ثانيةً وثالثةً ورابعةً حسب التغيّر الزماني أو المكاني، وحسب التطوّر المعرفي التاريخي، ولقد مارس النبيّ العظيم (ص) لا أقلّ في بعض الآيات عدّة قراءات منزّلاً إيّاها على ظرفها الوليد المناسب لها، فيما اشتُهر باسم "مناسبات النزول" (لا "سبب النزول") وتعدّد تلك المناسبات على آية واحدة، خُذْ مثلاً آية (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)(البقرة:189)، حيث عمل المسلمون في الصدر الأول بعدة

قراءات لهذه الآية بما يتناسب مع واقعهم تحريكا للنصّ القرآني على المعاني المتاحة الكاشفة للوقائع، فالأهلّة جمع إهلال، هلال[1] هي رفع الصوت عند بدء أيّ أمر، تقول "تهلّل فرَحاً" وتقول "استهلّ الوليد"، ثم صار مبتدأ كلّ شيء يُرفع الصوت عنده للإعلام. فكيف تتنزّل الآيات في معانٍ متفاوتة حسب البيئة الزمانية والسياق الاجتماعي؟ وكيف وُظّفت لثلاث محطّات في حقبة الرسالة الأولى، بتحريك لفظة "الأهلّة" إلى معانيها المحتملة كمدًى لفظي (كلفظ مشترك):

الأرضيّة الأولى: في المدينة، حيث كان بعضُ المنافقين يُغرون أفراداً من المسلمين بالحجّ وبقداسة بيت الله قبْلتهم ويُشوّقونهم لأهلهم باقتناص الذهاب، فكان بعض المسلمين يتسلّل لممارسة هذه الشعيرة وتفقّد موطنه ما قد يُوقعه في فتنة المشركين وأذاهم، الذي هو قصْد المنافقين أساساً، فنزّل النبيّ (ص) سياق الآية، ليوحّد الأمر بعدم خروج أحد ممّن معه لمنسك الحجّ، إلاّ حسب مواقيت الأهلّة (القمريّة) للحجّ، وبعد إذنٍ من النبيّ (ص) وذاك هو إتيان البيت مِنْ بابه لا مِنْ ظهره.

الأرضيّة الثانية: بعد فتح مكّة، حيث وُظّفت الآيات، في إرساء النبيّ "لمواقيت" الإهلال بالحجّ في مكّة، وهي "أهلّة" منها يُستهلّ الدخول على مكّة بلباس أبيض وبدون سلاح، ومَنْ دخَل من

---

[1] – ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ص1016.

غيرها عُدّ ظالماً محارباً، فصارت "المواقيت" أبواب البيت الحرام الذي منه يُؤتى، فالسياق يمضي مرّةً أخرى منسجماً.

الأرضيّة الثالثة: مع موسم الحجّ وأخذ المسلمين تعاليم دينهم، فيسألونه (ص) عمّا بقي صحيحاً مِنْ عادات العرب (من بقيّة مناسك حنفاء ملّة إبراهيم (ع)) وعمّا هو ليس بصحيح، بل زائفٌ ودخيل، فسؤال الآية يستوضح عن نهاية مناسك الموسم، بعملين: الأوّل: نحر البُدْن والأضاحيّ التي هي "الأهلّة" أهلّت لله لختم الحجّ. الثانيّ: الانصراف إلى بيت الأهل، وللحفاظ على تقوى الحجّ وصبغته كان العرب الحُجّاج ينْقُبون لهم من ظهر البيت ليدخلوا إليه منه. فأخبرتْ الآية أنّ الممارسة الأولى هي مِن تعاليم الحجّ فعْلاً وهي الميقات الأخير لهذه الشعيرة، وأنّ الثانية مجرّد عادة دخيلة لا علاقة لها بالبرّ ولا بالحجّ ولا بالتقوى.

فنلاحظ إذاً كيف مع تغيّر السياق الزمانيّ/ المكانيّ/ المعرفيّ تتنزّل الآيات "الاجتهاديّة"[1] بدواء المعنى الذي يُناسب الواقع المُستجدّ.

---

[1]- ليس كلّ الآيات "اجتهاديّة" قابلة للقراءة المرّة تلو المرّة، فهناك الآيات المحكمات على معنى واحد فقط لا غير، سواءً كان مجرّد التلاوة يكفي لفهمها (أمّ الكتاب)، أو احتاجت لعمليّة تأويل لفهمها (المتشابهات)، ورأيْنا في "التأويل" كمصطلح قرآني بعيدٌ كلّ البعد عن ما يقوله المعاصرون بمعنى "تجدّد القراءة والمعنى".

القاعدة الثانية عشر: أدوات التعامل مع القرآن

معرفة أدوات التعامل مع المادة القرآنية والغرض القرآني وحسن استخدامها. ضرورة فصل الباحث وتفريقه، بين عِدَده وأدواته في تحليل وفهم المادّة القرآنية، مِن تفسير، وتأويل، وتدبّر، وتعقّل، واستنباط، واستقراء، وتذكّر، واقتباس، واستفادة، وتمثيل، وتطبيق. والتمييز بين التفسير بأنواعه من تفسير كلِميّ لألفاظ الآية فقط، وتفسير اجتهادي، وفرْعه التفسير الموضوعي، وتفسير بياني[1]، لـئلا

---

[1]- أعلى التفاسير هو تفسير القرآن بالقرآن بل هو التفسير فقط، ثمّ تأتي مراتب الفهم بالمرويّات الصحيحة إنْ وُجدت على ندرتها النادرة، وأفضلها ما كان يعود إلى تفسير القرآن بالقرآن، هذا فيما يتعلق بتفسير ظاهر النصّ لا استيفاء كلّ ممكناته، فهذه الأخيرة مفتوحةٌ للقراءة والاجتهاد - الصحيح والمناسب - حتّى قيام السّاعة، غير أنّه مهما يكن من أمر، فإنّ بيان الله سبحانه الأمثل في عباده، المشتمل على أدلّة التوحيد والهدى والتقوى والتهذيب للأخذ بيد النّاس من ظلمات الظّلم والرعونة إلى فُسحات النّور والرحمة بإصلاح عقولهم وعقائدهم وأخلاقهم واجتماعهم وسياساتهم، هذا البيان الإلهي والذي هو مراده الأهمّ، قد أتاحه الله جلّ وعلا في ظاهر التفسير ومحكمات آياته مبيَّناً مُيسّراً لأنّه من مقتضيات الرسالة وشريعة المحجّة البيضاء.
والتأويل أمرٌ في غاية الأهمّية وأخطر الأمور، إذا لمْ يعرف المرء معناه وما هي آياته فقد يهجم على القرآن وهو ليس من أهله. والتأويل - على عكس ما يفترضه البعض- إنّما هو واحد لا متكثّر ولا تُغيّره الأزمنة ولا يتولّد لأنّه كشف حقيقة، والحقيقة واحدة. وهناك من التفاسير الموجودة النّوع الكثير، لكنّها في أغلبها إنّما كانت لغرضٍ يحكم (أو يصدّ عن) التفسير المجرّد المستكشف لمراد الله إلينا: فإنْ كان الغرض إثبات الروايات المفسّرة فقطّ كان التفسير روائياً (كتفسير الطبريّ، والسيوطي، وابن كثير، والبغوي، والصافي، وغيرها)، وفي هذه بالخصوص دخلتْ الكثير من الإسرائيليّات (وهي الإضافات الإخبارية والقصصيّة والروايات التي أُخذت نقلاً من آثار الديانات السابقة أو من أهل الكتاب من اليهود والنصارى من الذين أسلموا منهم كعبدالله بن سلام، وكعب

يقع الباحث في الخلط والوهم والشطح في مواطن يكون المراد طلب البرهان والدليل السياقي والعقلي. وبإمكاننا في هذه العجالة أنْ نقول أنّ التفسير الظاهر إنّما هو الظهور المبين الملائم للسياق كمعاني كلمات، والتدبّر هو طلب معنىً ثانٍ أو ظهور ثانٍ وثالثٍ ورابع وغيره، الملائم للسياق أيضاً، وبتعدّد القراءات وفق بيئات معرفيّة مختلفة تتجلّى الانكشافات ودورها في العمليّة الاجتهادية والتجديدية. أمّا التأويل فهو إرجاع الآية للحقيقة الوحيدة التي جاءت له، فطبيعة الآيات هي التي تفتح للباحث اعتماد الأداة وانتهاج المسلك المناسب،

الأحبار، ووهب بن منبّه الذي قال عنه الذهبي "كثير النقل من كتب الإسرائيليات"، وأيضاً تميم الداري) وكان لهذه الإسرائيليّات الصولة الكبرى في رسم معالم مشوّهة عن الكونيات والطبيعيات وبدء الخليقة وقصص الأنبياء، فجُمّد بذلك القرآن وأُسرتْ ألفاظه العلمية قرون مديدة حتّى الآن، وأُقيم بدلها الخرافات. وإنْ كانت التفاسير لغرضٍ مذهبيّ عقليّ وكلاميّ وفلسفيّ، كانتْ للذي كانت له، كالتفسير الكبير للفخر الرّازي، والكشّاف للزمخشري، وكثير من تفاسير الشيعة. وإنْ كانت لغرضٍ باطنيّ صوفيّ، فكان همّها الذوق والكشف والإشارة والزهد والواردات والخواطر و"التأويل" لكلّ ظاهر بما يُناسب ذلك عندهم كتفسير الألوسيّ وتفسير ابن عربيّ، وإنْ كانتْ للفقه وتقرير أدلّته وعرض الخلاف والحجج في ذلك، فليس إلاّ لما اقتصر عليه، كالقرطبي. أو كان للغة العربية ووجوه إعراب الآيات والقراءات، وعرض قواعد النحو ومذاهبها كتفسير الزجّاج والعكبري. وهناك أيضاً من اعتنى فقط بالآيات العلميّة، وإعجاز القرآن علمياً، لكنّ بعضهم جعل القرآن وكأنّه جاء لهذا فقط، بلْ وحمّله ما لا يحتمل ولبّس فيه كلّ كشفٍ ومخترعٍ تلبيساً، أو الأخطر أنّه جعله مشجباً للنظرّيات العلميّة، وهناك من استقصى فيه الأعداد والرموز وأحكم طريقته فيها، وهذه استفادات وليست من التفسير. ويأتي التفسير البياني على قمّة التفاسير لأنّها المرآة التي تُجلّي جمال الآية وجلالها ويجعل القرآن روحاً تُنعش مستلمها وفي تفسير "في ظلال القرآن" للسيد قطب بعضٌ من هذا، ثمّ يأتي التفسير الجهادي (الاجتهادي) كمفعّل للقرآن في مناحي الحياة السلوكية والعلمية والتطبيقية.

فثمّة آياتٌ مغلقة تحتاج تأويلا، وهنـــاك آيـــاتٌ مفتوحـــة للقـــراءات والاجتهاد والتدبّر، وهناك آياتٌ تطلبُ التفسير فحسْبُ، والكلّ يحتـــاج إلى فكْر وذكْر وتعقل. على شرط، أنْ يجري جميع ذلك وفق علـــوم العربيّة الصحيحة[1]، والمنطق بأدواته من عامّ وخاصّ، ومطلق ومقيّد، ومجمل ومفصّل، ومبهم ومبـــيّن وطرائقـــه العقليّـــة فـــي التحليـــل والاستنتاج، وإلاّ كان الباحث كمن يُروم الإبحار في المحـــيط دونمـــا قارب، أو الاصطياد من البحر لكن بمجرّد بسْط يده! وقدْ قال عليّ بن موسى الرضا (ع) عندما سئل عن قراءته القرآن، فأجاب: **(ما مررتُ بسورةٍ إلاّ فكّرتُ في مكّيها ومدنيّها، وعامّها وخاصّـــها، وناســـخها ومنسوخها .. إلخ).**

القاعدة الثالثة عشر: المفردة القرآنية والمدلول التاريخي

تحرير المفردة القرآنية المفتوحة من حـــصرها فـــي مـــدلول تاريخي محدّد.

أن أدقّ ما سنقع فيه، ولا يُمكننا الفرارُ أو التخلّص منـــه، هـــو عـــدم يقظتنا للفارق بين الدّالّ اللفظي للـــنصّ (المفـــردة القرآنيـــة)، وبـــين مدلولها التاريخي (أو معناها المستعمل المتعارف)، التبادرُ ســـيخوننا،

[1]– علوم العربيّة مثل علم الألفاظ المعجمي، وعلوم النحو والـــصرف والبلاغـــة والدلالة.

وسنحسبها جامدةً؛ لفظةً واحدةً لمعنىً واحد، ذهنُنا سينطلق مُبادراً مِن تلقاء نفسه كالرصاصة، إلى المعنى الموروث المتعارف الذي ألَفْناه ولمْ يطرقنا غيرُه. ستضيق بذلك عنّا القراءاتْ، وسيتعسّر علينا الوصول إلى اقتناص مراد الله إلينا في زماننا هذا عبْر رسائل نصّه القرآنيّة، ما لَم نُحرّر بيقظةٍ، تلك المفردة مِن معناها العُرفيّ؛ إذْ المفردة القرآنية قدْ يكون لها معنىً شرعيٌّ (كالقرآن، والصلاة، والجهاد، والزكاة، والحجّ، والنّذر، والكفّارة، والإيمان ..) إذا أتَتْ في سياقات لا تحتمل غيره، فهذه غير قابلة للمسّ. أو يكون لها معنىً لُغويٌّ فقطْ كحال معظم كلمات القرآن الذي نزل بلسانٍ عربي مبين لا بلسانٍ شرعيّ أو اصطلاحيّ، وكحال أكثر الكلمات التي تقرأها هنا الآن، فهي مما يجعل النصّ مفتوحاً على معاني رسائل وخطابات الإله الأزمانيّة التنزيليّة المناسبة، وهذا هو المعينُ مع تسديد الله في فكّ شفرة الآيات المحتاجة تأويلاً. أو يكون للمفردة معنىً عرفيٌّ أفرزته بيئةٌ تاريخيّة محدّدة[1]، إلاّ أنّه "لبطّ" واستحوذ على المفردة وكأنّها ملكُ يمينه لا فكاك لها منه، وكأنّه المعنى الوضعيّ المحدود للنصّ القرآني! هي مفردات تتسربُ خفيةً في غفلة منّا وبالكاد نميّزها، لكنّها تُشكّل لنا ثروةً معرفيّة لو قبضْنا عليها، لو اكتشفناها

---

[1]- هذه البيئة المحدّدة، هي في الأغلب زمن نزول النصّ الإلهي أو ما تلاه من القرون اللاحقة التيّ أطّرت علوم الدين وفسّرتْ القرآن!

وحرّرناها ثُمّ حلّلناها وحرّكناها، وتعثّقنا – لوْ أعـدْنا بنـاء مـداليلها الحقيقيّة لُغةً– مِن أسْر الكثير من الأخطاء الاجتهاديّة والعلميّة (مثال: "في الرّقاب"، "ملك اليمين[1]"، "رجال"، "كتاب"..)، عندها سوف تشرق آياتها بما يتناسب وهُدى بيانِ الله العظيم اليوم والأمس وأبداً.

[1]– نتساءل: هلْ أنّ "ملك اليمين" معناه الأمَة أو العبد فقـطّ؟ هـلْ هـي عبـارة متمحّضة لهذا المدلول فحسب؟ نُقرّ أنّ الإماء والعبيد أحد مصاديق "ملك اليمـين" يوماً ما في التاريخ، إلاّ أنّ الاقتصار على مصداقٍ واحد يـسلب المفهـوم مـداه الكامل ويقصره بدون دليل، فضلاً عن أنّه يجعل مِن 15 آيـة تـشريعيّة غيـر صالحة لنا في جزئيّة منها، فتضحى تاريخيّـة، وتُنـتج أنّ كتـابَ الله تتـنقض وتتساقط أجزاءُ آياته شيئاً فشيئاً مع تبدّل الطبائع والعلاقات المجتمعية. هذا؛ مـع أنّ الله سبحانه الحكيم لو أراد اللفظة (ملْك اليمين) خالصةً لمعنى (عبْد أو أمة أو مملوك) لأتى كذلك بها نصّاً فهي أدلّ وأبلغ، إذْ قد استعمل القرآن هذه المفردات في مواضع أخرى، فلماذا عمَد الحكيم تعالى إلى عبارةٍ أخرى أطول (مكّونة من كلمتيْن) وتحتمل حركتها ومدلولها مصاديق أكثر حسب اللسان والحالات؟! لكَ أنْ تبحث عزيزي القارئ في ذلك، وهو بحث كفيل بتغيير التشريع في مسائل معيّنة، وإخراجه من جموده.

كذلك الأمر في باقي المفردات ممّا مثّلنا وغيرها، التي انـسكب فيهـا المعنـى التاريخي والعرفي انسكاباً حتّى اشتملها واستلبها كلّها، ويكفيـك أنْ تقـرأ قولـه سبحانه (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ)(الأعراف: 46)، (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)(التوبة: 108)، (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصَارُ)(النور:37)، (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِـنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)(الأحزاب:23)، (وَقَالُوا مَا لَنَـا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)(صّ:62)، (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِـنَ الْـإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)(الجنّ:6)، لترى أنّ المفردة دلّت علـى معنى القيام والقوّة ولمْ تتخلّص للذكور فقط دون الإناث إلاّ حسب الغالب.

القاعدة الرابعة عشر: لغة القرآن حيويّة تصويريّة

لغة القرآن حيّة تنبض بالفوائد والحركة والإشعاع من كل الجوانب والزوايا، الإصغاء بالقلب يُدْني فهْمَ القرآن (**إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**)(ق:37). لُغةُ القرآن لُغةٌ حيّة نابضة محتقة بالإيحاءات مليئة بالإشارات، إنّ أيّ لغةٍ تُصوّر حدثاً يلزمها أنْ تجمع في طيّ نصوصها حركاتِ شخصيّاتها وإيماءاتِهم وانفعالاتهم وما يرتسم عليهم من تعابير ويستبطنون مِنْ مشاعر، هذا ما يفتقده كلّ نصّ ميّتٍ جامد. أمّا القُرآن فهو الزخّار بهذه الحيويّة التصويريّة، ولك أنْ تنظر إلى قوله تعالى (**قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ: مَاذَا تَفْقِدُونَ؟**)(يوسف:71)، لمْ يقلْ (قالوا مُقبلين) ولا (أقبلوا عليهم وقالوا) بل (**قالوا وأقبلوا عليهم**)، لِتلْفى علْماً آخرَ يفترس المشهد، مليّاً بالحركات الناطقة بنفسها ولو خفضتَ الصّوت، تشهد انفعال المطعون في أمانته، الشجاع، المُتيقّن صدْقَه، الغضِب لكرامته، كيف يتحرّك مقبلاً مبادراً بسؤاله عن التهمة الباطلة، ذاك الغضَبُ للكرامة الذي يدفعهم إلى إطلاقها مُغمَضةً، واثقين، في لحظة اشتعالٍ وانفعال، ولْيكُنْ ما يكون: (**قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**) (يوسف:75)، فيتورّطون، في كيْدٍ متين. وطالِعْ أيضاً (**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ**)(الكهف:42)، لترى مشهداً فيّاضاً لا كلماتٍ. وكذلك (**فَرَاغَ**

إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ؟ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ؟ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَـرْباً بِالْيَمِينِ)(الصافات91-93). وانظر إلى (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَـزَّقٍ: إِنَّكُـمْ لَفِـي خَلْـقٍ جَدِيـدٍ**) (سـبأ:7)، سترى عجباً. ترى فيها رجلاً (رسـولاً) مـستوحَداً بـيْن مجاميعَ لاهيةٍ، همّها أكل اللّحوم ونهش الأعراض وإيغـار الـصدور على كلّ مخالفٍ بجديدٍ جاء يُدينُ عبثيّتَها، جوقةُ التكذيب والعبث هذه، تتندّر برسولها، كأنّها لا تعرفه، كأنّه نادرة مجانينهـا، ومـسْخٌ مِـنْ عجائبها، فتُغري الأوباش تشهيراً به، وكأنّ قـضيّة "عـدم البعْـث" محسومةٌ وبديهيّة ومسلّمٌ بها، حتّى أنّ المُخالِفَ لها الـدّاعي لغيْرهـا مجنونٌ، بحاجة إلى التشهير به والتدليل عليه للضحك منه مِنْ فرْط ما خالف بديهةً!. انْقلْ نفسَك هناك، تغلغل بين تلك الجحافل الساخرة في مجالِسِها، متّعْ ناظريْك بفرادة حال ذاك الرسول وثباته وهم يضحكون على إنْبائه (**إنّكُم لَفي خلْقٍ جديد**)، ثمّ اخْرقْ الزمنَ متنـصّلاً لتـصل هنا، لتنظر حولك إلى المليارات البشرية المؤمنة هنا، التـي تـضحك على مَنْ يقول ضدّ ذلك الآن وتشمئزّ منه!

وتأمّل قوْل الساقي لحاشـية الملِـك (**أَنَـا أُنَبِّـئُكُمْ بِتَأْوِيلِـهِ فَأَرْسِلُونِ**) (يوسف:45)، وأغمضْ عينيْك لتلمح رجلاً مفتخراً يضربُ على صدره بعد طول نثي، منتصباً بين الجموع المُطرقـة حيـرى، تلفى رجلاً، الآن فقط، برز ليفتخر بسابقةِ سجنه لأنّه صـار ببركـة

ضنك تلك الأيّام ملجأ هذا اليوم ومُشرأبّ أعناق القوْم، تجد رجلاً واثِقاً لا أنّه "قد يُنبّئهم"، أو "سيُنبّئهم"، بل "يُنبّئهم" وكأنّه يملك الجواب سلَفاً وباقي أنْ يحضره مِن بيته أو يُخرجَه مِن جيبِه، يقيناً منه في علْم يوسف الذي عاينه معاينةً بنجاته هو وهلاك صاحبه، وفي كرم يوسف الذي هو دائماً "**من المحسنين**".هو وحده يُنبّئهم، لا غيره، لا ينبغي إرسال غيره، فهو ثقة يوسف وإلْفُه ورفيق شدّته وجليسُه "**فأرسلون**". ولا أنّه يُنبّئ الملكَ فقط، بل ينبّئ الجميع، جميع الفاشلين، أنّه وسطَ ذلك الظلامِ القمرُ، اشترى بذلِّ يوم، عزَّ يومٍ آخر، هو هذا.

فلذلك ينبغي على الباحث والمتدبّر أنْ ينظر إلى الآيات بقلبه أيضاً لا فقط بعقله، اهْفُ إليها، استَمعْ لها، احْضُرْ فيها، اركَبْ معها، كُنْ أحدَ شُهدائها، فالله يقول (**لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**)(ق:37)، تنفسْها، لتشهد حركة موجاتها وإرسالاتها الخفيّة، تفاعلْ معها وتأثر بها لتنطق لك وتسمع منها، و"التفسير البياني" هو خيْرُ ناظرٍ إلى هذه الجنبة المكنونة.

المؤسف أنّا كُلّنا لا نستخدم نصوص القرآن إلاّ كشاهدٍ على ما نرى ونقول، وكدليلٍ على صحّة مزاعمنا (أدبيّة كانت أم علمية)، فيُؤتى به ليشهد صامتاً ويُوقّع ويرحل، كشاهدِ نفيٍ أو شاهد إثبات، ولمْ نأتِ به كمُعلّم وربّ أمام جهّال، هذا ما أبْعدَنا أنْ نتعلّم منه شيئاً.

القاعدة الخامسة عشر: نسبيّة الوصول المعرفي

نسبيّة الوصول، ينبغي أن نضع في اعتبارنا دائمًا عدمَ اعتبار مستوىً معرفيّ معيّن في عصرٍ من العصور قديمٍ أو حديثٍ، أنّه مستوى الكمال والنهاية، لأنّ المعرفة تتّسع وتزداد عبر الأجيال المتعاقبة، وكل جيل يستفيد ممن سبقه - حتى ولو بالتغيير في المعلومات - ويضيف جديداً في معْمار المعرفة الذي يبنيه الإنسان، ولذلك لا يمكن أن نعتبر المستوى الحالي - مثلاً - للمعرفة بأنّه مستقلّ تماما عن المستويات التي سبقته، لأنّ المعرفة الإنسانيّة سلسلة متصلة الحلقات، لذلك ففي الوقت الذي نعترف فيه بفضل القدامى وأنّهم لولا هم لما كنّا نحن، فينبغي الاعتراف بقصورنا أيضاً تجاه ما سيأتي به الزمان غداً، فإنْ بدا ثباتٌ ومنطقٌ لنا فإنّما هو نسبيّ ورهينُ مستوانا الضيّق الذي نطلّ به على الأمور اليوم، فينبغي ترك الباب لنا مفتوحاً لتغييرها من قبلنا أو غيرنا ممن يعقبنا عند مستوى معرفي أرقى ونظرة أشمل وأثقب.

ونتيجةً لذلك، فعلى الباحث أنْ لا يستزّله الرضا بمستوى معيّن، ومعرفةٍ واحدة، بل عليه التشكيك في المتعارَف والمسلّم، بل وإثارة التساؤل المشروع في الأصول المتوارثة والقواعد المعرفيّة المتسالم عليها، ما كانت من عند غير الله، وما بدا منها تكلّفٌ وليٌّ وتعنيتٌ وقصورٌ في تناولها لآيات الله، فقد يكسرها الباحث ويعيد

تأسيس غيرها أو يُفكّكها ويطوّرها، ليصوغ قواعد أليــق كحاويــات أكثر إبداعاً واتساعاً وإبرازاً لكلام الحكيم وجلاله، علــى أنْ يكــون منشأها من القرآن منبعاً أو دليلاً.

وعليه محاولة النظر بطرق غير مألوفة لكن منطقيّة، ليتساءل دائماً ودائماً: لماذا؟ وماذا لو؟ وكيف؟ وباستخدام التفكير المبــدع لأنّ القرآن منْ لدن مبدع حكيم، ما يعني أنّك قدْ ترى الشيء ذاتــه الــذي يراه الآخرون ولكنّ تفكيرك يختلف تماماً عن تفكيرهم، هذا يجعلك لا تُكرّر، إمّا تقول خيراً إضافيا أو تسكت، خذ مثالاً: (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**)(الأعراف:172)، وتساءل:

- لماذا لمْ يقلْ (وإذْ أخذ ربُّك مِنْ آدم ذرّيته)؟ لماذا أخذ "مِنْ بنيه"؟

- لماذا لمْ يقلْ (وإذْ أخذ ربُّك مِنْ ظهور بني آدم ذرّيتَهم)؟ أيْ لمــاذا الصياغة الأطول: "منْ بني آدم، منْ ظهورهم، ذرّيَتهم"؟

- لماذا لمْ يقل (ذرّياتهم) بالجمع، وجعلها ذرّية واحدة؟![1].

وغيرها من أسئلة، وحذار أنْ تقتنع وتركن لما في التفاســير وأقوال الرجال، فإنّك بذاك تستنسخ فقطّ ما كانوا يعملون، ولنْ تُضيف جديداً، وإنّ خير الناس مَنْ جمع عقول الناس إلــى عقلــه، لا الــذي

[1]- أجبنا على بعض هذه التساؤلات في بحث: **وعصى آدم**، الحقيقة دون قنــاع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

عطّل عقله وحشاه بما هو موجودٌ في عقل النّاس أو خيـــالاتهم! فـــلا تجعل قاعدتك "الحشر مع النّاس"، أو "مراعاة المألوف"، بل أنّ اقتحام اللامألوف وقوّة التخليق كان هو داعي نفخ الروح فينا، كُنْ باحثاً عن الحقّ وإنْ عزّ طُلابُه، بهذا شرع الأنبياء وبهذا سار المكتشفون، وبـــه تطوّرت أممُ البشر.

القاعدة السادسة عشر: سيادة القرآن على المرويّات

مسألة شائكة تبرز لدى الباحث، هي وجود كمٍّ متضاربٍ مـــن المرويّات المأثورة التي تُحاول تفسير الآية، إمّا بنقاء وإمّـــا بطمـــس معالم الآية الشريفة، هنا ينبغي إعطاء القدســـيّة الأولـــى لكـــلام الله سبحانه لأنّه ثبتَ بأنّه ليس "**قـــوْل البـــشر**"، أمّـــا كـــلام المعـــصوم والصحابيّ والتّابع فمع قدسيّة الثابت منه والصحيح فلا يُـــوازي أبـــداً كلام الله تعالى ولا يُدانيه، وقد أثبتنا في فصل "مرجعيّة القرآن" مـــن بحث "الهجرة إلى القرآن"[1]، أنّ الحفظ والعلوّ والقياسيّة هو للقرآن فقطْ لا للأحاديث المرويّة التي اشتُهر بأنّها هي "الـــسنّة الـــشريفة"[2]، وأنّ

---

[1]– انظر: البحث المتعلق بـــ: " **الهجرة إلى القرآن**" جمعيـــة التجديـــد الثقافيـــة الاجتماعية.

[2]– إنّ سنّة النبيّ (ص) هي هدية وسمته وسيرته وأفعاله، وليس كلّ ما يُـــروى عنه هو من سنّته، لهذا وقع الخلط، وقد نبّه النبيّ الكريم (ص) إلى ذلك في خطبة الوداع: (قدْ كثرتْ عليّ الكذّابة، وستكثر بعدي، فمن كذب عليّ متعمّـــداً فليتبـــوّأ

مدوّني "السنّة" دوّنوها بعد وفاة النبيّ (ص) بعشرات ومئات السنين، بلا رقابةٍ حافظةٍ منه ولا أمر أو إذن، فلو تجاهلنا دور بصمات السياسة والحكم الأمويّ والعبّاسيّ والمذاهب والطوائف في توجيه واختراع الأحاديث النبويّة، فليس بمقدورنا أنْ نتجاهل أنّ الرواة كانوا بشرًا بالدرجة الأولى، يميِّز أغلبهم إيمانهم بالرسالة أو المذهب وغيرتهم عليها واندفاعهم إلى نشرها، لاسيما بما يتوافق مع منظورهم واعتقادهم وولائهم وقطعاً ظرفهم؛ فهُم لم يكونوا معصومين عنْ قلّة الفهم أو النسيان أو عن الأهواء والاستقطاب الذي هو أصيلةٌ بشرية. وعلى أيٍّ، مثلما أنّه لا يُمكن بحالٍ من الأحوال أنْ تحتكرَ الروايةُ الصحيحةُ للمعصوم المُعطى الكاملَ للنصّ الإلهي المطلق ومضمونَه الضخم وتُهيمن عليه (ما لمْ تكن العمليّة تأويلاً واضحاً وثابتاً)، فمِن أوْلى أنّه لا يُمكن بحالٍ أنْ ينسخ قولُ المعصوم (ص) قول الله عزّ وجلّ، ولا يُقيّده، ولا يُخصّصه، ولكنْ يُفسّره في واقعه ويُبيّن مبهم معنى الآية – لدى مَنْ أُبهمتْ لديه – ويُفصّل

مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عنّي فأعرضوه على كتاب اللّه عزّ وجلّ وسنّتي، فما وافق كتاب اللّه وسنّتي فخذوا به، وما خالف كتاب اللّه وسنّتي فلا تأخذوا به) نرى عرض الحديث على سنّته (ص) التي هي تطبيق للقرآن.الطبرسي، **الاحتجاج**، ج2، ص246؛ وقال أيضاً: (وأنه ستفشو عني أحاديث فما أتاكم من حديثي فاقرؤا كتاب الله فاعتبروه فما وافق كتاب الله فأنا قلته وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله). الروياني، **مسند الروياني**، ج2، 355؛ الهيثمي، **مجمع الزوائد**، ج1، ص170.

مجملها كما في الأحكام والعبادات، ويخصّص عمليّاً ويقيّد النصّ (المفتوح في أصله لا المُغلق) في واقعه التطبيقيّ لا في النصّ نفسه، فذلك ممكنٌ إنْ صحّتْ الرواية ولم تتضارب مع أخواتها من الروايات[1]، أمّا المعارضة منها للقرآن صريحاً فتُضرب كما أخبر المعصوم (ص) عرْض الحائط ولا ضيْر، بل هو الواجب، ومخالفتُها أولى من مخالفة كلام الله سبحانه، فأوصى رسول الله (ص): (**إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كل صوابٍ نورًا، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه**)، فكلّ مرويات (عرض الحديث على القرآن) تبيّن أنّ القرآن معياريّ، قياسيّ له نظامٌ محكم، واحد، ثابت، لا أنّه متعدّد ومحتمل وحمّال ذو وجوه ومبهم وغير قطعيّ الدلالة (كما يقولون)، وإلاّ لما أصبح ميزاناً للعرض والقياس!

---

[1]- نستشهد دليلاً بما قاله الشوكانيّ أحد أئمّة المفسّرين بأنّ النبيّ (ص) لمْ يُنقل عنه أنّه فسّر كثيراً من حقائق القرآن، وأنّ الروايات المختلفة من الصحابة والتابعين دليل على عدم صدورها من النبيّ (ص) بل هي اجتهاد منهم غير ملزم، فيقول تعقيباً على معنى الكلمات المقطّعة التي هي فواتح السور (فإن قلت: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟ قلت: لا أعلم أن رسول الله (ص) تكلّم في شيء من معانيها، وتساءل الشوكاني: هل يجوز تقليد أحد الصحابة في تفسير هذه الفواتح إن صحّ إسناد القول إليه؟ فيُجيب بالنفي؛ لأنّه مجرد رأيٍ له قاله باجتهاده، ثم أنّ المرويّ عن الصحابة هنا مختلف متناقض، فلو عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكّمًا لا وجه له، وإنْ عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف ومتناقض، ولا يجوز، على أنّه لو كان شيء مما قالوه مأخوذًا عن النبي (ص) لاتفقوا عليه ولم يختلفوا، كسائر ما هو مأخوذ عنه، ثمّ لو كان عندهم شيء من هذا لما تركوا حكايته عنه، ورفعه إليه، لا سيّما عند اختلافهم). الشوكاني، تفسير **فتح القدير**، ج1،ص31، 32.

ولاحتاج للتقويم بدلاً من أنْ يكون هو المقوِّم، مخالفاً قول القرآن عن نفسه (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**)(الإسراء:9)، وقول الآتي به إلى الناس (ص) (**إنّ هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمةً مَنْ تمسّك به، ونجاة مَنْ اتّبعه، لا يعوجّ فيقوّم، ولا يزيغ فيستعتب**)[1]!

---

[1]- والمرويّات في إعلاء شأن القرآن على ما سواه كثيرة، صدرتْ عن النبيّ (ص) وعن أهل بيته وصحبه، نعرض لك بعضها، وركّز على ما تحته خطّ:

قال (ص): القرآن غنى لا فقر بعده، ولا غنى دونه. المحمودي، **نهج السعادة**، ص405؛ الطبري، **المعجم الكبير**، ج1، ص255.

وقال (ص): فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه. البخاري، **خلق أفعال العباد**، ص19؛ الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل**، ج4، ص237.

وعنه (ص) يقول: (أتاني جبرئيل فقال: يا محمّد سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال كتاب الله فيه بيان ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، لا تزيفه الأهواء ولا تلبسه الألسنة، ولا يخلق عن الردّ، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، هو الذي لم تكنّه الجن إذ سمعته، حتّى قالوا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ)(الجن: 1، 2) مَنْ قال به صدق، ومَنْ عمل به أُجِر، ومَنْ اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ومع كلّ هذه الأوصاف التي قالها جبريل (ص) لنبيّ الأمّة (ص) يُؤخَّر كتاب الله ويُقدّم كلام الرجال التي لم يُنزل الله بكلامها ثناءً وإثباتاً حتّى لميزة واحدة من تلك الميزات. المحقق الحلي، **المختصر النافع**، ص17.

وفي حديث عليّ (ع) (.. جعله الله .. عزّا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلّم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجًا لمن حاجّ به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسّم،

ولقد تعلّق البعض بأهداب ما أوصى به عليّ (ع) عبد الله بن العباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: **(لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا)**[1] فظنّ هذا البعض أنّ السنة قطعيّة الدلالة حسب هذا النصّ وأنّ القرآن ظنّي، ولم يتوجّه أنّ ظرف الحديث ظرفُ إثبات صلاح عليّ (ع) وإيمانه وعدم كفره وأفضليّته واستقامته، عند أولئك الخوارج الذين كفّروه وبدّعوه، ففي هذا لو جيء بالقرآن الذي انخدعوا بنشره على الصحف، ومع أنّ فيه الحقّ، لكان لكلّ فريق تأويلٌ وقولٌ وقيلٌ بجهالة ومراء أو قلّة فهم، لا سيّما

وعلمًا لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى. الشريف الرضي، **نهج البلاغة**/شرح محمد عبده، **ج2، ص178.**

وأيضاً: (وقال (ع): واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب). لاحظ الحصْر في الأسلوب. الشريف الرضي، **نهج البلاغة**/شرح محمد عبده، ج2، ص91.

فنتساءل: كيف يكون كتابٌ بهذه المواصفات وهو محتمل الوجوه المتناقضة يدلّ على الشيء وعلى عكسه، أو مقولاته مجملةٌ غير مبيّنة؟!

لكنّ علياً يشخصّ الدواء والداء معاً، الذي نخر في الأمّة منذ ذلك الزمن بتحويل القرآن إلى كتابِ إبهام يُتّخذ ظهريّاً فيقول: (فكونوا منْ حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتّهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم. وقال أيضاً: .. فإنّه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنّه قد ذهب المتذكّرون، وبقي الناسون والمتناسون! الشريف الرضي، **نهج البلاغة**/شرح محمد عبده، ج2، ص92، 95.

[1]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**/شرح محمد عبده، ج3، ص136.

وأنّ القوم كلّهم يفتقدون النظام القرآنيّ ويتلونه بإسباغات قشورهم، فلذلك اختلفوا في الآراء وضلّوا، فينبغي توحيدُهم على نظام قرآني أوّلاً لمنع أنْ يغدو القرآن حمّالاً ذا وجوه لديْهم، أمّا السنّة التي أُثِرت عن رسول الله (ص) في عليّ (ع) وعلمه وتقواه وأهليّته ومحبّة الله له وفرضها على المؤمنين فلن يجدوا عنها محيصاً. فالقرآن فعلاً يحتمل حسب الظاهر وجوهاً كثيرة لمن لم يُحكّمْ نظامه وهذا كان حال الخوارج بل حال الجميع إلى اليوم، وهذا الحديث هو بخلاف (**لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة**)[1]، فالوجوه الكثيرة هي التي يعمل بها القرآن في الأزمنة المتجدّدة، هي آيات تطوّر الأوضاع الإنسانية، آيات الاجتهاد والفقه في الحقول كلّها.

بهذا، إذن، بعْدَ عرْض المرويّات الصحيحة على القرآن لتُصدَّق به أو ألاّ تُعارضه، نوجّهها وجهاتها اللائقة بها وننزّلها في مقامها المنضوي تحت لواء كلام الله المهيمن على كلّ شيء، توقيراً للمقدّسيْن الأكبر والأصغر (القرآن والسنّة الصحيحة)، فنحتمل بعْدَ هذا التسليم:

1- أنّ الرواية كانتْ مزاوَجة اجتهادية من المعصوم بين نوع "النصّ الإلهي المفتوح" والواقع المعاش لالتماس تطبيقٍ دوائيّ مناسب، أيْ

---

[1]- الزركشي، **البرهان**، ج2، ص208.

هي تفعيل النصّ في الواقع المتاح وفق الأرضـيّة المتـوفّرة (كمـا ضربنا أمثلة سابقاً في مسألة "الأهلّة").

2- أنْ تكون الآية أفادتْ مُباحاً بإطلاقها وعمومها، فقيّـد المعـصوم هذا الحلال حسب واقعه الظرفي أو حسب الواقع العلمـيّ أو علـى خواصّ المؤمنين به طلباً لكمالهم أو بعضهم، فأفاد منعاً، أيْ "تحريماً" ظرفياً لا مُطلقاً وعامّاً، حتّى وإنْ امتدّ وجرتْ العادةُ الحسنة به، فنصّ الله المغلق لا معقب له، لا مقيّد ولا ناسخ ولا مخصّص ولا معارض، في داخل النصّ نفسه، أمّا النصّ المفتوح فقد فتحه الله أساسـاً لأجـل العمل به بحسب الواقع المتاح، فالزيادة والإنقاص لا في النصّ نفـسه بل في حقله التطبيقيّ المتغيّر، فمثل هـذا الـنصّ يحتمـل الوجـوه التطبيقيّة تضييقاً أو توسعةً، وهذا الأمر يُفهم أكثر بمطالعـة مُعالجـة مسألة النسخ والتقييد والتخصيص في فصول بحـث "الهجـرة إلـى القرآن"[1].

3- أنْ تكون الرواية جاءت وليدةَ تاريخيّتها اللسانيّة (لغة النبيّ محمّد (ص)) لكنْ بلغةٍ مرموزةٍ ذات مُكوّنٍ صحيح لو تأوّلتْ، فـلا تُؤخـذ على ظاهرها اللفظيّ المتبادر، مثل روايات الدجّال والدابّة والـدخان ويأجوج ومأجوج، وكما ورد في الخبر القدسيّ المرويّ عنـه (ص):

---

[1]- انظر: البحث المتعلق بـ: " **الهجرة إلى القرآن**" جمعيـة التجديـد الثقافيـة الاجتماعية.

(من أنّ الملائكة سألوا ربّ العزة سبحانه: ربّنا، وسيّدنا وخالقنا، سبحانك تنزّهت أسماؤك، وتقدّست صفاتك، قلت للسماوات والأرض: (ائتيا طوعًا أو كَرْها، قالتا أتينا طائعين)(فصلت: 11)، فماذا لو لم تأتيا طائعتين؟ قال سبحانه: كنتُ أمرتُ دابّةً مِن دوابّي تلتقمهما معًا لُقمة واحدة)[1] فهذا لا يُمكن تصوّره في ذلك الزمن إلاّ بوجود حوتٍ كبير أو أفعى ضخمة في الفضاء تبتلع السماوات والأرض مع تصوّر ساذج أيضاً للسموات والأرض، أمّا اليوم فيُمكننا بسهولة أنْ نفهم أنّ السماوات والأرض تُشكّل هنا في أقصاها مجموعتنا الشمسيّة، والدابّة التي تدبّ في هذا المجال هي ثقبٌ أسود والذي يشفط كلّ ما جاوره في لُقمةٍ واحدة ولا يُميّز بين شمس وقمر وأرض. وليس في ذاكرة النبيّ (ص) شيء اسمه "ثُقبٌ أسود" فهو مصطلحٌ تخصّصيّ اصطلاحي حادث. وكذلك يروى حديث عنه (ص) غير معروف المصدر، ناصحاً للوقاية من الأمراض: **(اتّقوا الذرّ فإنّ فيه النسمة)**[2]، والذرّ هو الغبار، فما هو النّسمة؟! لابدّ أنْ يكون شيئاً أصغر من الغبار، ولا يُمكن معرفة هذا الشيء ولا رؤيته في حقبة الرسالة حتّى عصرنا إلاّ بعد اختراع الميكروسكوب, لنكتشف أنّ بعض الأمراض المعْدية تنتقل بالرذاذ عن طريق الغبار, وأنّ

---

[1] – انظر: القرطبي، **التفسير**، ج15، ص344(قريباً منه).

[2] – انظر: محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية.

الميكروب يتعلق بذرّات الغبار عندما يحمله الهواء فينتقل بذلك من المريض إلى السليم، وهذه التسمية للميكروب بالنسمة هي أصحّ تسمية, و"النسمة" تُطلق على أصغر كائنٍ حيّ.

4- أنّ الرواية المفسّرة ما هي إلاّ انطباق أوّلي وقراءة أولى، أو تمثيلٌ تقريبيّ لتفسير الآية، سيّما إنْ كانت مِن الآيات التي لا تتفسّر إلاّ بتقدّم العصر والعلوم (الظرف الموصوف في القرآن بعبارة "**يومَ يأتي تأويلُه**")، أو أنّها مصداقٌ أو قُلْ انطباقٌ لُغويّ (مُحاكي لغويّ) أيْ تمثيل لتفسيرِ العبارة وتقريبها، كالتفسير الروائيّ المتضارب في "الشفع والوتر" بأنّ الشفع هم الخلائق والوتر الله، الشفع يوم التروية والوتر يوم عرفة، أو هما صلاة الشفع والوتر، أو الزوجية من الأعداد والفردية، أو الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام .. وقد وصل المرويّ مِنْ أوجهٍ إلى ستّ وثلاثين احتمالاً، و"السبع المثاني" رووا بأنّها فاتحة الكتاب، أو السبع السور الطوال، أو السبع السور التي ثنّت الطوال وتلتْها.. الخ، فكلّ هذا ليس بتفسير لتُصادَر الآيةُ به.

5- أنّ الرواية المفسّرة جاءتْ بغرض استثارة العقول، تنحو بالنّاس للتفكير في كلام الله ومحاولة فكّ رموزه بمحاولات حسب أرضيّتهم ومداركهم "تثير في الناس دفائن عقولهم"، أي رواية تدريبيّة تفكيريّة تُري النّاس أنّ مِن واجبهم فهم كلام الله والاستفادة منه لا بالهوى

ولكن رُقيّاً إيمانياً، كتفسيرهم للكلمات التي تلقاها آدم فتاب عليه بروايات كثيرة منها " اللّهمّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين" وتفسيرهم إيّاها بغير ذلك، وهو أقرب للتفعيل الموعظيّ، وليس بتفسير.

6- أنْ تكون الرواية توظيفاً للآية لا تفسيريّة، توظّف الآية في إرشاد النّاس إلى معنىً عباديٍّ أو شعائريّ أو سلوكيّ أو عرفانيّ، لوجود محاكاة لفظيّة قريبة تحتمل هذا الحمْل، مثلما وظّفوا "**المغضوب عليهم ولا الضالّين**" غرساً للحصانة الإيمانيّة والاستقلال الذاتيّ وتوخّياً لعدم الذوبان والانبهار بما لدى الكتابيّين قبلهم، ففسّروا الآية حيناً في اليهود والنّصارى، لغرضٍ مرحليّ يُرسى به قواعد الإيمان والعزّة، لا لتكون هي تفسير الآية.

7- قطْعاً للنزاع مِن أوّله، هل أنّ المعصوم يتكلّم بعلمٍ مطلق أم بحقيقة نسبيّة؟ أو هل أنّه يعرف الحقيقة في نفسه كاملة أو يعرفها منقوصة؟ فلا يهمّ، ما دُمْنا باستقراء الروايات نلحظ وجودَ تعدّدٍ للجواب في القضيّة الواحدة حسب حال السائل وحسب الظرف، وما دام قد ثبت في الأثر قول النبيّ الكريم (ص) (**إنّا معاشر الأنبياء أمِرْنا أنْ نكلّم الناس على قدْر عقولهم**)[1] ولو كانت الحقائق لديهم

---

[1]- الكليني، **الكافي**، ج1، ص23.

كاملة، ما يعني أنّ المعصوم (ص) لا يتحدّث بالهوى، بلْ ولا بعلْمه الخاصّ، ولا بمستواه أيضاً، إنّما بحسب العقول ووفْقَ المصلحة (أيْ حسب الأرضيّة والظرف النسبيّيْن)، لذلك يُخبر الإمامُ جعفر بن محمّد عن جدّه المصطفى (ص): "**ما كلّم رسولُ الله (ص) العبادَ بكنهِ عقلِه قطّ**"[1]. فالنتيجة، أنّ ما بيْن أيدينا مِنْ مرويّات لا يُمكن لها أنْ تتطاولَ على الزمن المتجدّدةِ حقائقُه وأوضاعُه وعلومُه وحاجاتُه، كثيرُها إذاً ذو حقيقةٍ زمانيّة نسبيّة، بحسب مصالح وعقول تلك الأزمنة، لا بحسب عقولنا، هذا فيما تستزيد العقولُ منه وتتطوّرُ الأفهام عنه وتتغيّر المصالح فيه، أمّا الثوابت مِن قيمٍ وأخلاقٍ وعباداتٍ وأصول عقائد ظاهرة أو النبوءات الصحيحة، فعقلُ الأجيال مُذْ لدنْ الخاتم محمّد (ص) حتّى يومنا فيه سواء، والمصلحةُ فيها ثابتةٌ على نسقها وأصولها.

ختاماً، قد يتبادر لذهن القارئ الكريم بعض التساؤلات، ولعلّ أهمّها، هل هذه هي أهم القواعد التي يستطيع بها المبحر في ثنايا القرآن أن يفتح القرآن العظيم ويصل إلى مكامنه فيستخرج كنوزه ويلمّ بمضمونه ويستشف ملامحه، ويتنفس جوّه، ويعرف سوَره ومعاني كلماته وأحكامه الأصليّة؟ أم أنّه يمكن أن تكون هناك قواعد أخرى، قد نستدركها لاحقاً كلما أبحرنا في خضم هذا الدستور الخالد؟

---

[1]– الكليني، **الكافي**، ج1، ص23.

مِن منقصةِ عقولنا بل وانغلاقها، أنْ ندّعي أنّها هــذه، ومــن الحَجْر على كتاب الله والإزراء به ثانيةً وقوقعته أن ندّعي أنّها كذلك، فالأمر يظلّ مفتوحاً بانفتاح كتاب الله الذي لا يُمكن إغلاقــه، لأنّ الله هو فاتحُه ولا مُغلق لما فتح.

الفصل الثاني

معطيات إرشاديّة

وبعد أن وعى القارئ الكريم تلك المفاتح التي لا يُمكن كما قلنا أن نسْدِل الستار عليها بدعوى الاكتمال، إلاّ أنّ هناك نقاطاً تمخّضت من حصاد استقرائنا لكتاب الله الكريم، آثرنا تسميتها بالإرشادات ليأخذ القارئ فسحته بالنظر إليها والاختبار.

أوّلاً: القرآن مطلق، وفهمنا نسبيّ

فهمنا نسبيّ، والقرآن مطلق، ولكن فيما تتناوله مداركنا ويفي بحاجاتنا. كلام الله يدور مدار الحقّ المطلق لكنْ هو مِن أجل تعريف الإنسان وبلوغه في الدنيا، فما كان مِن علمٍ خارج مدركاتنا ولا يُمكن للبشرية الوصول إليه فلا ينبغي الزعم بوجوده في كتاب الله تعالى المنزّه عن العبث، لأنّه بيانٌ أوّلاً ومنزّلٌ إلينا ثانياً، فحيثما أحال مفسّرٌ ما على الغيب والجهل باقتناص المعنى (كالساعة، والدابّة، والدخان، ويأجوج، وذي القرنين، والحروف المقطّعة في أوائل السّور)، فإنّ ذلك لا لأجل غيبة العلم ومكنونيّته واحتجابه بل لقصر باع الباحث

وتخلّف عصره المفضي لقصورنا المعرفي الزماني وعــوز الأداة – أو المُرشد الربّانيّ – في فهم النّظم القرآني، أو نتيجة تكــدّس الفهــم التراثيّ وغمغمة أدواتٍ منه غيرِ منسجمةٍ والإحكامَ القرآنيّ، وســيأتي حينٌ ينكشف فيه القرآنُ بكلّ مُراده بحقائقه الدامغة الكاملة (**يَوْمَ يَــأْتِي تَأْوِيلُهُ**)(الأعراف:53)، وأنّ محاولات الإنسان العلميــة والتفــسيريّة والتأويليّة المُخلصة المتجرِّدة تُوطّئ بتراكمها لذلك البعيد المأمول.

ثانياً: القصص القرآني حامل زمني مُطلق لغايات

القصص القرآني ليس وصفاً وسرداً للحدث، بل حامل زمنــي مُطلق لغايات. المبثوث من كلام الله سبحانه المُضمَّن ألــسنة البــشر الماضين، أنبياءً كانوا أو أعداءً أو غير ذلك، فليس هو عيْنُــه نــصّ كلامهم، لكنّه الوصف الحقّ كما لو كان المشهد ينطق لُغــةً، فقــول الدهْريّين "إنْ هي إلاّ أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع" صاغها الحــقّ بــأدلّ العبارات وأجزلها (**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَــا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**)(الجاثية: 24)، لتعبّر بذلك عن كامل اعتقادهم بــأبلغ بيان، وخلّد سبحانه قولهم وضمّنه كتابه المقدّس اعترافاً بالرأي الآخر وصيانةً لوجوده، وتعالياً منه عن الدحض إذ يُقدّم حجّة الخصم بأقوى بيانها، ثُمّ ليعمّ – بصياغته البليغة هذه – كامل أصول تلــك العقيــدة مهما نُظّر لها وزيد فيها على مرّ العصور، لئلاّ تتقزّم الآيــة فتعــالج

فقط عقيدةً منقرضة لا شأن لنا بها بل أنّ لها أشباهاً ونظائر زمانيّة تحتويها العبارة الإلهيّة وتعنيها وتلامسها، فهذه الآيةُ عقيدة وسلوكٌ يعيشُهما الكثيرُ من النّاس سواءً من العابثين اللاهين، أو حتّى من العلماء الماديين الجادّين الذين يُحاولون حلّ معضلة "الزمن/ الدّهر" لإيقاف جدل الموت والحياة.

وكذلك مقولات القصص القرآني التي دارت بألسنة غير العربية الفصحى من قبطيّة وسريانيّة وفينيقيّة وغيرها بل ومن منطق جنّ ولغة حيوانات، إنّما نقل سبحانه المختصر الجامع عن واقع المقال وواقع الحال وضمير النفس ومؤدّى العبارة بما فُهم في ذلك السياق كما أرادتها أشخاصُ القصّة تعبيراً كمتكلّمين أو وعَوْها كسامعين، فهي اختصار تلقائي لذاك الواقع في أوجز عبارة (فالسحرة قالوا كلاماً أمام فرعون، وحتماً لمْ يكونوا يتكلّمون العربيّة الفصحى، وحتماً لمْ يُكرّروا كلامهم كلّ مرّة بكيفيّةٍ مغايرة، إلاّ أنّ مجموع كلامهم ومواقفهم وإيماءاتهم وحركاتهم حُشدت وصوّرت في الصياغات الرائعة المتنوّعة التي كرّرها سبحانه في مطاوي السّور بعبارات وألوان مختلفة)، فوق ذلك أنّه سبحانه يزيد لنا ما به نأخذ العبرة والمعارف من مطاوي القصص، مع حفظ الأمانة القصصيّة كوقائع بها حكمة مستأنفة لا كسردٍ تاريخي.

ثالثاً: القسَم الإلهيّ

القسَم الإلهيّ خطاب اتّصالي مرتبط بنا ولغاية لنا، متجانس والسياق. لله تعالى أنْ يُقسم بما شاء من خلْقه -كما قيل- وليس لخلْقه أنْ يُقسموا إلاّ به، ولكن عليْنا أن نفهم أموراً توخّياً لمواطأة حكمة العليّ الحكيم، منها:

أوّلاً: أنّ الله تعالى إنّما يُقسِم في خطابه للإنسان بأشياء للإنسان عهدٌ بها أو قابلٌ لأنْ يفهمها لوجود بذرة معرفة في مدركه عنها وستتكامل يوماً ما، فلا يُمكننا أنْ نقبل أنّ الله قد يُقسم -عبر وسيلة اتّصاله القرآنيّة بنا لإفهامنا- بأمرٍ لا نعرفه، هو غيبٌ في غيب، كأنْ يُقسم بمخلوقات لا يمكن تصوّرها وبمجرّات غير معلومة ولا يمكن للذهن أبداً أن ينتقل إليها عبر مُشاهَدٍ معلوم.

ثانياً: لابدّ من وجود تأثير كبير وأهميّة بالغة للمُقسَم به في حياة الإنسان ومسيرته وبنحوٍ غير عاديّ، وهذا أمرٌ جوهريّ ينبغي الاعتناء به، فالله سبحانه لا يُمكن أنْ يُقسم لنا بما هو مهمّ عنده فقط، لأنّ الأشياء بالنسبة له هي سواء، بلْ بما هو مهمّ لدينا وله أثرٌ بالغٌ علينا، (الشمس) (القمر) (الأرض) (النفس) (النجم الهاوي) (العصر) (العاديات) (المرسَلات) (التين والزيتون) (البلد الأمين: مكّة مهد الرسالة العالمية) (السلالة الآدميّة، والد وما ولد) .. هذه أمورٌ لا تزيد شيئاً مِنْ ذرّة في ملكه سبحانه ولا تشكّل شأناً في عظيم سلطانه، لكنّها

هي كلّ عالَم الإنسان وقوام وجوده أو هلاكه، فمثال **(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)**(النجم:1) لا يُمكن أنْ يكون معناها حسب الفهم السائد مِن كواكب سيّارة، أو نجوم متحرّكة، أو الشهب المليونية الساقطة كلّ يوم، لعدم توافقه مع هذه القاعدة.

ثالثاً: وثاقة الارتباط وحتميّته بين المُقسَم به والمقسم له، فحين يقول سبحانه **(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)**(البروج:1)، فحتماً لها ارتباط وشائجيّ مع **(وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)**(البروج:2) يوم حساب **(أصحاب الأخدود)** وغيرهم من الظلَمة الذين توحّشوا وفقدوا الإنسانيّة وأجرموا بحقّها، للانتقاص منهم. وحين يُقسم سبحانه **(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)**(الطارق:1)، فبين السماء والطارق وشيجة واقتران، تمتدّ لا بتكلّف وتعتعة بل بانسيابٍ إلى المُقسَم له مباشرة وهو **(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)**(الطارق:4)، "فالسماء والطارق والحافظ" أثافي لحن واحدٍ هو "بيانُ الختام"[1] ختام التجربة الإنسانيّة على الأرض بطارقٍ يطرق "السماء" فتتوقّف دورة "الحافظ"، وحين يقول تعالى ويقسم **(وَالْعَصْرِ)**(العصر:1) فلا ينبغي بترها معنىً عن **(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)**(العصر:2) الذي ينعصر عمرُه (العصر) عبثاً حتّى يفنى فيما يفنى، وذاك الذي لا يقبل التطوّر والتجديد فيخسر فُرص رقيّه ويعيش

---

[1]– هذه لها اعتناء خاصّ في بحثٍ آخر عن "الساعة"، تركناها للقارئ اللبيب يتدبّرها في كتاب ربّه بما يفتح الله له وفّقَ هذه القواعد.

خارج "عصره" متعلقاً بجلابيب الماضين آكلاً فقطّ لا مِن كدّه بل مِنْ تُراثهم.

ونضرب مثالاً على المُقسَم بهما، قسَمَه تعالى في موضعيْن، **(والقرآن المجيد)** **(والقرآن ذي الذكر)** وارتباطَهما الخاصّ بجواب القسم:

- **(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)**(سورة ق: 1، 2).

- **(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)**(سورة ص: 1، 2).

فلو انعكسا فصار قسَمُ هذه مع جواب تلك هكذا: **(والقرآن ذي الذكْر، بل عجبوا!)**، **(والقرآن المجيد، بل الذين كفروا في عزّة وشقاق!)** لاختلّ النظم والمعنى ولوقع الفساد كوْناً وتشريعاً، "فالقرآن المجيد" هو أرقى مستوى معرفي شأنه الإعجاب والإدهاش، ولو تابعْنا سياق آيات "قاف" الأولى لرأيناها تنطق عن آيات علميّة طبيعيّة ومعارف فوق المدرك الإنساني. أمّا شأن "**القرآن ذي الذكر**"[1] فهو

[1]- بيّنّا تفصيل الفرق بين "الذكْر" و"القرآن" في البحث المتعلق بـ: **الهجرة إلى القرآن**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

أيْسر مستوى (قرآنيّ) مُخرَج لعموم النّاس، فجاءت الآية خطاباً رسالياً دعوياً، فالرافض للذكّر مع وضوحه ويُسره يدخل في زمرة "**الذين كفروا**" لا محالة، وعلّة رفضه لا مِن جهة "الذكْر" وجمال "الذكّر"، بل من جهة أنَفةٍ و"**عزّة**" على حامله والدّاعي به والتكبّر والـ "**شقاق**" ضدّه وعليه، لذلك تراهم سيقولون بعد كذا آية (**أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا؟!**)(ص:8) فالعزّة والغرور أعلتْ بأنوفهم فرفضوا الدّاعي بما حمل. وكذلك لو قُرن المُقسَم به في الآية الأولى "**المجيد**" مع جواب قسم الآية الثانية "**عزّة وشقاق**" لوقع التناقض، في صدام مشروع لا محيص منه بين "مجيدٍ" و"ذوي عزّة".

لكنْ الواقع يُثبت أنّ الصدام من الرافضين إنّما كان ظالماً وغير مشروع ومُنصِف بين "**ذكْرٍ**" جميلٍ ميسَّر مع نبيّ سمحٍ كريم من جهة، مع نفوسٍ ملتوية "مُشاقة" وأنوفٍ "متعزّزة" مترقعة، فكان حظّها "الكفر"، ولو انعكس لكان لتكبّرها وعزّتها مسوّغٌ، ولاستبدلت الدعوة المحمّدية سماحتها بالعنت وبالقوّة والحتْم.

رابعاً: النسبيّة المعرفيّة في خطاب الكائنات

النقل القرآني للخطاب غير الإلهيّ قد يكشف نسبيّة المعرفة وتطوّرها، لا الحقيقة المحضة. فالكلام المنقول عن الأمم (الإنس،

الجنّ، الطير، وغيرهم) ولو كانوا أنبياء، قد يكشف المستوى المعرفيّ السائد وليس بالضرورة الحقيقة العلمية أو المطلقة، أي يكشف الحــقّ النسبي كما هو منظورٌ إليه حينها، كقول الخليــل إبــراهيم (ع) فــي التراتب (كوكباً، القمر، الشمس)[1] – الأنعام 76، فإنْ لمْ يكن المقصود هو أحجامها الظاهريّة حسبما تلوح للنّاظر الأرضي وهذا حقّ، أو لــمْ يكنْ المقصود تعاقبها في الظهور في بعض أوقات السنة فأفولها كمــا يلوح من السياق (كوكب الزهرة يظلّ ثلاث ساعات بعد المغرب، ثــمّ بزوغ القمر، ثمّ الشمس مع الشروق)، فإنّه يُمكــن حملهــا أيــضاً أنّ المعرفة السائدة كانت بظنّ أنّ القمر أكبر من الكوكب والشمس أكبــر الجميع (هذا أكبر) وأنّ هذا الترتيب هو الحقيقي الصحيح، في حــين أنّ الصحيح العلمي هو (القمر، كوكباً، الشمس) سواءً كــان الترتيــب حسب الحجم أو مسافة بُعْد، وعلى هذا يُمكن حمْل قول الجنّ (**وَأَنَّــهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**)(الجــن:3) والله تعالى ليس له جدٌّ وحظّ، لكن هذا هو مدركهم حينها.

وميزة قول البشر التاريخيّين ذوي المعرفــة النــسبيّة مهمــا سموْا، هو بخلاف قول العليم عزّ وجلّ الذي لا يُمكن أنْ يطرأ عليــه

---

[1] –(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِــبُّ الآفِلِــينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِــنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَــا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(الأنعام: 76–78).

هذا الاحتمال بنسبيّة المعرفة وزيادتها وتطوّرها، ولكنّه ينحـو أحـد احتمالين:

إمّا الحقيقة العلمية كما هي كقوله (**وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**)(الشمس:5، 6)، فهي الحقيقة العلميّة حتّى في تراتبها، أمّا انقلاب هذا التراتب في آيتين أخرييْن حيث أنّه بعد خلْقه الأرض قال: (**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**)(البقرة:29) فيعني أنّ تلك حقيقة أخرى، فالأرض أوّلاً خُلقتْ ككوكب بعناصرها، ثمّ عُمِدَ إلى تسوية سمائها (غلافها) طبقات حافظة (وأيضاً لكواكب المجموعة الشمسيّة تسويتها سبعاً طباقاً مع الأرض)، ثمّ جاء طحو الأرض اليابسة (بسط ومدّ القشرة الأرضيّة التي خرجت من الحمم) ودحوها (نشرها على الكرة الأرضيّة وبسطها). وإمّا أنّها حقيقة علميّة خارجيّة منظورٌ إليها بعين البشر كآية (**وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**)(القمر:1) فهو انشقاق ضوئه للرائي الأرضي (لا جُرْمه) بفعل حادثة كونيّة حقيقيّة ستقع مستقبلاً. (بغضّ النظر عن وقوع مثلها سابقاً كظاهرة تاريخيّة أو كحقيقة سحيقة ماضية).

يبقى كلامُ أجناسٍ خرجت عن سياق الكسب المعرفي والتطوّر الزماني، كالملائكة أو الحيوانات والطيور (نملة – هدهد) أو طفل في المهد (كعيسى (ع)، يبدو أنّ كلام تلك الأجناس خارج

الزمن، إذْ ليس له وجهٌ حضاريّ وخلفيّة اكتسابيّة أو تراكميّة، بل هو محض إلهامٍ إلهيّ (أو برمجة). إنّ عدم اعتراض نبيّ الله سليمان – مثلاً – على تولّي امرأة (بلقيس) مقاليدَ حكْم بلادها، قدْ يغدو معتمَداً قويّاً، لكنّه ربّما يُعبّر أيضاً عن فهم نسبيّ ومرحليّ أو عرْف ظرفيّ، أو مجرّد تقبّلٍ خاصّ منه (ع) لا أنّه يُعبّر عنْ كشفِ مرادٍ إلهيّ في مسألة تولّي المرأة للولايات والمناصب على الذكور، هذا بخلاف عدم اعتراض الهدهد على هذا المشهد، هو أقوى في الكشف عن "الموقف الربّانيّ"، إذْ ليس للهداهد (إنْ كان الهدهدُ المقصودُ طيراً) – عدا فطرة التوحيد – مزاجٌ خاصّ أو تحيّزٌ عقيديّ أو جنسيّ، أو تراكمُ معارف ونسبيّة حقائق وتطوّر أفهام[1].

---

[1]– تمعّن كيف استنكر الهدهد سجود بلقيس وقومها للشمس من دون الله، ولمْ يستنكر توليتهم لامرأة! بل أثنى عليها أنّها أُوتيت كلّ ما يُؤتاه الملوك من حسن تدبير وقوّة شخصيّة وسياسة وتبجيل وضبط وانتظام (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ* أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)(النمل: 22-26).

خامساً: عربيّة الأسماء في القرآن

اللسان العربيّ المبين، هو قمّة تراكم جبل العربيّة القديمة، التي ما زالت المعاجم تحتفظ بالكثير من مفرداتها إضافةً إلى التي نُسمّيها سريانيّة، فارسيّة، يونانية، "عاميّة"، فلهجاتنا تحتفظ بالكثير منها، فالعربيّة الفصحى (لا أقلّ المستخدمة) قد تخلّت عن كثير من التركيبات والأدوات القديمة، حتّى أنّ المتتبّع للمعاجم وللّهجات العاميّة يتحيّر في بعض الصياغات والأوزان بناء على عدم وجودها في الفصحى، فنجد كلمة "تابوت" يختلفون في أصلها، و"تارة" أيضاً، وقد عمدوا لتسميّة بعض الأسماء "أعجميّة" فظنّ الباحث أنّها غير عربيّة، وإنّما معناه أنّها غير عرباء (فصحى) بل عربيّة قديمة قبل إيجاد التنوين، فمثلاً إنّ أدوات التعريف في العربيّة القديمة كانت تحوي أكثر من ألف لام التعريف (الهاء، الألف، الدال/ الذال/ التاء، الميم) قبل أن تتخصّص الفصحى وترقى وتجعل الميم مختصّة للظروف وللمفاعيل والفواعل وأسماء الآلة وغيرها، والهاء للضمائر واسم الإشارة.

بهذا نستطيع أنْ نقرأ القرآن كمهيمن معرفيّ ولغويّ أيضاً ضمن تراثٍ قديم واحد، لا أنّه منقطع عن لهجات الأمّة منذ آدم، ولقد فسّر لنا العربُ الأوائل وبعض المرويّات كثيراً من تلك الأسماء، فظنّ البعض أنّها محض توافقات أو تخريجات وتحكّمات، بناءً لديهم

على أنّ السريانيّة (التي دُعيت بعض لهجاتها كنعانيّة، وكلدانيّة، وآراميّة ..) هي غير عربيّة! والحقيقة أنّها ليست توافقات، لمن يطّلع على هذه اللهجات فسيجدها ولهجاتنا العاميّة سواء، كلّها عربيّة تختزن المفردات والتصاريف والتراكيب والقواعد القديمة التي باد بعضُها في الفصحى.

إنّ الظنّ بانقطاع العربيّة الفصحى عن قاعدتها العريضة التي بُنيت عليها، انفصال القمّة عن السفوح، هو الذي جعل كثيراً من أساطين اللغة كابن فارس يُرجعون الفعل الرباعي إلى ثلاثي (وهو أمرٌ صحيح) بعد تهذيبه من زوائد الحروف العشرة التي جمعوها في "سألتمونيها"[1]، فالسين والهمزة والتاء تزاد مجتمعة في نحو "استغفر"، واللام في نحو "ذلك"، والميم والواو في نحو "مضروب"، والنون في نحو "سلمان"، والهاء في الوقف نحو "سلطانيه". هذا الاطّراد المشهور في الزيادات، هو الذي حدّد الحروف المزيدة بعشرة لاشتهارها، لكنّه سدّ باب معرفة الكثير من أوزان الأسماء والأفعال التي نجدها في العربيّة القديمة وفي لهجاتنا وفي القرآن أيضاً، ثمّ جاء "النحت" كقاعدة لحلّ كلّ رباعيّ أو خماسي، ولكنّه حلّ ناقص. النحت مثل "جلمود" نُحتت من "جلد" و "جمد"، ولكن ليس كلّ رباعي أو خماسي هو هكذا، ولو راجعنا معجم مقاييس اللغة، في الأبواب التي تختم

---

[1]– البستاني، **محيط المحيط**، ص162.

كتاب (فصل) كلّ حرف وسمّاها صاحبُه (باب ما جـاء مـن كـلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف)، وننقل بالعشواء فقط[1]:

"حسكل": الصغار من كلّ شيء، وهذا ممّا زيدت فيه الكاف.

"حبجر": وهو الوتر الغليظ، والحاء فيه زائدة.

إذن هناك حروف زائدة غير العشرة ومثالهـا هنـا الكـاف والحاء. ولو واصلنا لقرأنا: "حملق": إذا فتح عينيه ونظر نظراً شديداً، ولم يُعقّب ابنُ فارس أيّ حروفها هو المزيد، وكيـف نُحتـت. لكنّنـا نتوقع أنّ الميم هي الزائدة لأنّ "حلق": كما يقول ابن فارس لها ثلاثـة أصول أحدها ما يدلّ على آلة مستديرة ومنها الحلَقة، وعدسة العـين إذا فتحها المرء على وسعها صارت كالحلقة وهي آلة الإبصار، بدليل أنّا نجد فعلاً رباعياً آخر في لهجاتنا "بحْلق" أي حدّ نظرَه وفتح عينـه مصوِّباً، سواءً كانت هي إبدالا ثمّ إقلاباً لـ"حملق" الآنفة، أو الباء هي الزائدة، فيدلّ أنّ "حلق" هي الأصل، وأنّ الباء تُضاف أيضاً، بل كـلّ الحروف تُضاف لخصائصها، ولهجاتنا تعجّ بهذه الألوان، ومراجعـة متأنّية لكلمات المعجم تريك هذا الأمر.

أمّا عن الأوزان، فنجد في العاميّة التي هي أطلال (العربيّـة القديمة) صيَغاً مثل (فِعِّيل، فاعوُل/ فاعوت، إفعيل/ إفعـول، فُوْعَـل،

---

[1]– ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ص281.

وغيرها) التي بإسقاطها أصبح النظر إلى تلك الكلمات على أنّها أعجميّة، فمثل "فِعِّيل": ضِلِّيل، لِعّيب، قِدّيس. ومثل: "فاعول/ فاعوت": شاقول، جاموس، تابوت، طاغوت، لاهوت. ومثل "إفعيل/ إفعول": إبريز، إبريق، إدريس، إبليس (وهذه كلّها جعلوها أعجميّة)، إسطورة، إحبولة، إمثولة، إكذوبة (أو بفتح ألفاتها في الفصحى). ومثل "فُوْعَل": سُومَر (أي اسمرّ)، سُوْوَد (أي اسْوَدّ)، وأيّ تغيّر ذاتي يطرأ (رُوْبَن: أي راب، صُوْبَن: أي تصبّن، مُوْلَح: صار أملحاً، رُونَق: تغيّر اللّون والحالة، من "رنق"، والتي في الفارسيّة كلهجتنا العامّية "رنگ").

كما لم يلتفتوا إلى الإبدالات الحرفية التي تقع بين القديمة (كالسريانية ولهجاتنا) مع الفصحى، بين العين والغين والألف، والقاف والجيم والألف، والغين والجيم والقاف، والسين والشين والزاي والصاد، والتاء والثاء والدال والذال، والذال والزاي، وهكذا غيرُها كما نجدها لليوم في اللهجات.

فغياب كثير من الصياغات والأوزان والإغماض عن الإبدالات، جعلنا نقرأ القرآن في إحداثيّاته التاريخيّة، وفي صياغات رموزه وأسمائه، بإحالات إلى لغات أعجميّة لا تمتّ للغتنا بصلةٍ، فنثبت من جهة لا عربيّة القرآن، ومن جهة أخرى نَفقد رموز بيانيّة القرآن ودلالاتها وأسرار مفرداته.

فبعض المتعصّبين أشكل على القرآن لماذا سمّى "يسوع" "عيسى"؟ ثمّ راح يكيل مِن حقده أجوبةً مثل (**هل يريد القرآنُ أن يُحاكي يسوع مع "عيصو/عيسو" أخي يعقوب والذي كان** -كما يقولون- **عصيّاً؟**) فهذا ممن يجهل بأنّ "الآراميّة" ما هي إلاّ سريانية وهي عربية قديمة، وأنّ الرسالات واحدة لا خصومات بينها إلاّ مِنْ جهل ورعوناتِ أتباعها، وإنّ "عيسى" هي "عيشة" أي الحياة، كما سمّى التوراة "حوّاء" المرأة الحيّة "عيشة" (ish-shaw)، وأحياناً تبدأ بـ يا النداء للربّ، فتصير "يا حي/ يا حيا (بالسرياني)" وهي التي تُلفظ "يحيى" أي يا حيّ، ويا عيْش التي تُلفظ بالسرياني "إيشو" = يا إيسو، تلفظ يسّو أو يسوع، أو عيسى كما هي بالعربيّ، أي يا حيّ (Je-hoshua)، حيث الجيم ياء في بعض اللهجات القديمة ولا زالت.

ونقرأ عن قوله تعالى (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً**)(مريم:56)، فلا ندري سوى بوجود نبيّ يُدعى إدريس، أمّا ما ارتباط هذا الاسم بما قام به ودوره في الوجود الإنساني والمسيرة الحضارية وأثر التعليم الربّاني فيها فقد غاب عنّا؟ وما سبب رفْعه مكاناً عليّاً؟ لا ندري، وحين تقول بعض الروايات أنّ إدريس سُمّي كذلك لدرْسه الكتب، لا نُصدّق وقُلنا لعلّه مجرّد توافق لفظي، وكأنّ العربيّة متطفلة على التاريخ ومنبتّة عنه!

إنّ غياب هذا الوزن "إدريس" أو الإبدالات بين الألف والعين والهاء، "هدريس" "عِدريس"، صيّرت الكلمة وكأنّها ليست عربيّة، فالدرس هو الطريق الخفي (اندرس)، وتتبّع هذا الأثر وتعلّمه وتعليمه هو دراسته وقد قال القرآن **(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)**(سبأ:44) و**(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)**(القلم:37)، فهو صاحب الكتب لذلك نرى في المروي "صحف إدريس"، وهو صاحب العلوم الذي علّم الناس أسباب الحضارة من زراعة ونسيج وبناء وفلك وملاحة وهندسة وكتابة، وكان يطوف البلدان فأطلق عليه قومٌ "إرموز" على وزن "إفعول" أي الرامز معلّم الرموز والإشارات والخفايا، وهي التي تُلفظ "هرموز/هِرمُز"، واشتهر عند أقوام "إحنوك" ذا الحنكة والتجربة، وبالإبدالات صارت "أخنوخ" أو أنّها "أخ – نوخ" أي صاحب الإناخة والتوطين، حيث أنّه بتعليم الناس (الرعاة الرُحَّل) الزراعة والريّ والنسيج والبناء فقد علّمهم التوطين والإناخة في مكانٍ واحد بدلاً من الترحال طلباً للكلأ والمرعى. ودُعي لدى قدماء المصريّين "تحوط" أي ذو–حوْط (الإحاطة)، المحيط بالعلوم والأسرار، ورسموه رجلاً ربّانياً يمسك كتاباً وقلماً. فكلّها تسميات عربيّة، ولكن لا يعني أنّ "إدريس" معلّم الخفايا والأسرار، كان اسمُه كذلك منذ ولادته، بل بما اشتُهر وعُرف، ثمّ صار هكذا يُؤرّخ ويُدوّن لدى التالين.

و"إبليس" قالوا أنّها من الإبلاس أي اليأس، وهذا معقول، لكن لا يعني أنّ إبليس منذ وُجِد كان اسمُه إبليس، وهذا ما صار يَشْكل على البعض، بل لقد اقترن اسم "إبليس" به في القرآن منذ تمرّد على الأمر لا قبْل، كأنّه (يئس) أنْ يجد له موضعاً في المشروع الربّاني المُستحدث (مشروع جعل خليفة بشري) ثمّ زاد وتكبّر وانتفخ وطغى وتحوّل إلى شيطان رجيم، فلمْ يُسمِّه القرآن في أحداثٍ بعدئذٍ إلاّ شيطاناً، وقد أكّد سبحانه أصل هذا الفعل "أبلس" أربع مرّات لا اعتباطاً كقوله (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ**)(الروم:12)، هذه اللفظة العربيّة هي التي دوّنها الكهنةُ في التوراة (دي-أبولُس) (دي هي ذي بمعنى الذي وهذا واضح فليس إلاّ لام التعريف مضافة، أي الذي أبلس)، صارت باللاتينيّة (Di-abolos)، ثمّ "ديابول" بحذف السين ظنّاً أنّ السين النهائيّة كانت زائدة حسب عادة الإغريق، ثمّ ديڤول، بالإقلاب بين الباء والڤاء، والتي تُسمّى الآن ديڤيل (Devil)!

و"نوح" أوردها القرآن كما لُفظت بالعربيّة السريانيّة، حيث كانت الحاء تُقابل الحاء ومعها الخاء أيضاً، أح هي أخ، حمْشو: خمسة، حولو: خال، فاحو: فخّ، فـ نوح هي نوخ، وهي الراحة والإناخة والاستقرار بعد الاضطراب مع قومه وأذاهم وإجهاده مع الطوفان وجوبان السفينة الطويل، فهو كما قال القرآن له "**اهبط بسلام**" أي أنِخ وارتَحْ، فهو "نوخ"، نوح السريانيّ، وليس معناه أنّه

سُمّي نوحاً منذ ولادته، بل هذا هو اسمُه الأشهر وهناك أقوامٌ أخرى في بابل سمّته (زي–سدرا: ذي الصدر)، وسمّته (باشيشو: وهي قد تعني باثّ/بعث–عيشو أيْ باعث/باثّ الحياة (العيش) حيث لا وجود للعين في السومريّة القديمة ولا للثاء بل تُلفظ بما يُقاربها) وسمّته ("أترا–هاسِس" حسبما كتبها لنا الغربُ، فهو أحد ثلاثة احتمالات؛ فحيث لا وجود للخاء بل تلفظ حاء أو هاء، فهي "عترة–خاشِش" مُخبّئ العترة أي المحتفظ بالنسل وحافظه، والاحتمال الثاني إطراء–خاصِص: المخصوص بالحمد والإطراء كما عبّر القرآن "سلام على نوح في العالمين"، والثالث: أثرى–حاسِسْ أي أكثر الناس إحساساً ودراية وهو قريب من الذي خمّنه المترجمون الغربيّون "واسع المعرفة")، و("**أتو–نفشتيم**": وهو مُعطي النفوس أو حافظُها، إذّ "أتو" بالسرياني: آتى/ أعطى و"حاط" أيضاً، ونفّش: نفْس، والياء والميم للجمع)، فنلاحظ أنّها أسماء شهرة، لا أسماء ميلاد، تماماً مثل داوُد: ذا وُد، الودود، وهذا يُفسِّر لنا انسجام الطبيعة معه (**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْر**)(سبأ:10)، وكيف كان "صحيحُ" المزامير من أرقى ما جمعه أهلُ الكتاب ككلام هيامٍ وتأوّهٍ عرفانيّ، ونفهم الرواية التي تقول أنّ داود سُمّي كذلك لأنّه (**داوى جرْحَه بوُدّ**)[1].

---

[1]– نعمة الله الجزائري، **قصص الأنبياء**، ص 416.

وهذا بخلاف إسماعيل: "إسماع-إيل"، الذي هو اسمُ ولادة، أي "سَماع" بلهجتنا العاميّة، و"شمْعو/شمُو" أو "سمعو/سمو" فتصير شموئيل، سَمْوُئيل/سَامْويل، و"إيل/إلّ" هو عِلّة الوجود وواسطته (الله)، فهو سَماع الله، أي إجابة الله، وهكذا يستبين لنا من الاسم أنّ إسماعيل رُزِقَه إبراهيم (ع) بعد يأس وأنّه أوّل أبنائه.

وهناك الكثير من الأمثلة، ولكن اختصاراً يليق بهذا المختصر، ينبغي ألاّ نبتر الأسماء التي تضمّنها القرآن وتراكيب مفرداته عن اللغة العربيّة القديمة الأمّ، فقد احتفظ لنا ببصماتها على هذا الصعيد تنويهاً بأنّ هذه الأمّة أمّة الأنبياء أمّة واحدة ولغتها واحدة.

الخاتمة

لقد قام مُعظم المفسّرين –بدلاً من محاولة اكتشاف الهندسة القرآنية– بالانسياق وراء أفكارهم وقواعدهم التي أرادوا إحكامَ القرآن بها، ونسوا أنّ الله سلفًا قد أحكم كتابَه بنظامه الخاص وبنتائجه الحقّة، قاموا جاهدين بتفسير كلّ آية[1]، وفي حقيقة الأمر هم لم يفسّروا الآيات بل "أوّلوها"، الأمر الذي نفاه سبحانه عن اقتدارهم ومُكْنتهم ما ولجوا القرآن من غير بابه، واختصّ به نفسه ومن ارتضى من أهله ومن جعل القرآن علَماً أمامَه ليُصغي إليه بقلبه مأموماً به.

فلو أنّهم فسّروا معاني الألفاظ وأعطوا للمتدبّر احتمالاتها ومداها، وتركوا الآية مفتوحةً على الاحتمالات كلّها، وقالوا هذا حدُّنا وليس هو إلاّ تفسيرَ ظاهرِ ألفاظ الآية، وأمروا بعدم فرض الالتزام بآرائهم فضلاً عن محاربة وتفسيق مخالِفها، لو أنّهم ما أسّسوا عليها الحقائق والقواعد والعقائد والشرائع حتّى كُفّر مخالفها أو غير المقتنع بها، بل لو عدّوه مجرّد اجتهادٍ منهم في الفهْم لا أكثر، قد يُصيب وقد يُخطئ، لما جمدتْ الأمّة وقدّست هذا التراث الهائل من السمين

[1]– أثِر عن بعض الصحابة تنزّههم عن إبداء الرأي في تفسير آيات القرآن أو تأويلها فأوردوا الكثير من الحالات منها: (كنّا نسأل سعيد بن المسيّب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آيةٍ من القرآن سكت كأنْ لم يسمع). ابن كثير، **التفسير**، ج1، ص7؛ وأيضاً؛ الطبري، **جامع البيان**، ج1، ص59.

والغثّ وأخطأت في عقائدها العلميّة التي صار كثيرٌ منها اليوم يشتبك مع العلم من جهة، ومع العدل من جهة أخرى، فيُوأد كلُّ صوتٍ ينادي بالإصلاح ولو كان مخلصاً، ولما ظلّت الأمّة بالمرصاد معترضةً أمام أيّ فتح تجديديّ للفهم لاكتشاف الحقائق التي هي الحقائق سواءً مِن كتاب ربّها أو مِنْ خارجه.

ثمّ حين انفتحت العلوم ورأى البعضُ التناقضَ صريحاً وكبيراً، أخذْنا اللّهاثَ وراء ما يكتشفه الغربُ لنعيد اكتشافه وإمضاءَه من القرآن العظيم، ما أدّى مرّة ثانية إلى كارثةٍ أخرى، هو أوّلاً: خلط القرآن بالنظريّات التي هي في مهبّ الإبطال في أيّة لحظة بأخرى أقوى منها، وثانياً: تكريس نفس القواعد السابقة الموروثة في تأويل الآيات، فأصبح لها الآن داعماً علمياً وبرهاناً من الخارج، فكأنّ المكتشفات التي حاولنا بعسْرٍ تركيبها على آيات الله القرآنية لنُنطّقها بها هي في الحقيقة ليست شهادة على أنّ القرآن كتاب الله، بمقدار ما هي شهادة على أنّ النّظام المتّبع والقواعد الحاكمة للقرآن تثُبت سلامتُها! فلا غرو سنبقى وراء النظريّات في أحسن حالاتنا، وسيظلّ القرآن دائماً ظهريّاً، ولا غرابة بعد هذا مِنْ عزوفِ أجيال الأمّة عن قرآنها ومصادرته عن وجدانها.

لقد التفت بعضُ عقلاء المسلمين إلى هذه الحالة المتخلّفة، وتندّروا بها قائلين لمَ لا نكتشف الحقيقة من القرآن قبل أنْ يكشفها

العلمُ النّظريّ والتجريبيّ؟ فهل القرآن هو "كتاب بَصْمة" يُصادق على ما اكتُشف فقط؟ أم هو هداية إلى هذه الكشوف؟ أليس من طريقة نعكس بها المسألة؟

لو تصوّرنا أنّ الطبيعة والكون هما آلة لا نعرف تسخيرها ولا اكتشاف كيف تعمل، فأرسل لنا خالقُ الكون (كُتيّب إرشاد/ دليل استعمال/"Manual")، فظلّ طريحاً في أيدينا، ثمّ كلّما حاول الإنسانُ الآخر محاولاتٍ لتسخير الكون يُخطئ فترة ويتعثّر مرّة حتّى يُجاد عليه فيكشف بعض القوانين، تمعّنّا نحن في "كتيّب الإرشاد" الذي بين أيدينا حتّى وجدنا أسطراً تُوهم مزغللةً بهذه الحقيقة، وصرخْنا: ("يُوريكا يُوريكا"[1] نعم هذه الطريقة الفلانية مكتوبةٌ هنا في هذا السطر)، ثمّ: (تلك مكتوبةٌ في ذلك السطر)، السؤال: لماذا نترك العالِمَ والعالَمَ يتوهان ويجرّبان ويصرفان المليارات من الأموال والأوقات، بل وقد يُتلفان الآلة الكونيّة من كثرة التجريبات، ويفسدان الطبيعة ففي حديث عليّ (ع) (**زلّةُ العالِمِ تُفسِدُ عوالِم**)[2]، لماذا نتركه حتّى يصلّ بعد عدّة إخفاقات – قدْ لا تَسلمُ عُقبى أحدِها– إلى النتيجة الموجودة سلفاً في هذا الكتيّب؟

---

[1]–"يُوريكا" هي صرخة أرخميدس، حينما اكتشف قانون الإزاحة للأجسام الطافية، وتعني "رأيتها رأيتُها/وجدتُها وجدتُها" (وأصلها عربيّ من الفعل "يرى").

[2]– محمدي الري شهري، **ميزان الحكمة**، ج3، ص2099.

الجواب لا يحتمل إلاّ أمرين:

الاحتمال الأوّل: أنّ الذي بين أيدينا ليس بكتيّب إرشاد، لا في نواميس الكون ولا في قوانين الطبائع ولا في سنن التاريخ ولا في حقائق العلوم، بل هو كتاب شريعة وأخلاق وتهذيب وإيمان، أمّا تلك المسائل فموكولة للعلم والاكتشاف، وهذا الرأي انتهى إليه كثيرون بعد إعياء من هذه الإشكالية وهذا اللهاث والتأخّر، فهي محاولة هروب إلى الأمام.

ولكن مع الأسف فإنّ "الكتاب" نفسه الذي جاء من الخالق يكذّب هذا، مؤكّداً أنّ (**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً**)(النحل:89) و(**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**)(الأنعام:38) وأخبر حاملُه لنا الأمين أنّ فيه "**علم الأوّلين والآخرين**" و"**خبر ما كان قبل وما يأتي بعد**" وهو "**ينابيع العلم**"، وصفحاته-علاوةً على هذا- تأبى هذا الرأي، لأنّها مشحونة بالرسومات البيانية والتفصيلات الدقيقة التي تتكلّم عن الكون وخلق الكون، ومراحل خلق الإنسان، ونهاية الخليقة، والبعث، وعلوم الطبيعة، والحساب والفلك[1]، والمعادن، والنبات، والطيور، وتاريخ

---

[1]– يقول أحدُ مشاهير العلماء المتخصصين في علم الفلك وهو(بروسو يوشادي كروزاي) مدير مرصد طوكيو الفلكي في اليابان –الذي يعتبر بحداثته وتجهيزاته ثاني مرصد في العالم– بعد زيارته لديار الإسلام: ((بعد أنْ قدمتُ إلى هنا وجدت أنّ في القرآن حقائق علمية كثيرة، والكون وما يحويه من كلّ شيء

الحضارات والأمم، وسُنن التاريخ، ثمّ يأتي كلام حاملِه الأمين أيضاً الذي تدخّل في كلّ العلوم إفاضةً وشرحاً وإنباءً لبناءً حضارة أساسُها علمٌ وإيمانٌ، فلو كانت العلوم لدى الأوائل هي مِن خارج القرآن فما فضلُ إبقاء القرآن إذن؟ إنّها وجْهٌ آخر للقول بالرجوع إلى السلف لأنّهم كانوا هم العلماء، لا بالرجوع إلى القرآن لأنّه كان مصدر علمهم وحضارتهم، لو أراد الله العكس لأبقى لنا السلف وأطال في أعمارهم لا أنْ يحكم بحفظ "الذكر" فقط، ثمّ يأمر بالرجوع إلى "أهل الذكر" إنْ كُنّا لا نعلم؟

أمثال هذه الدعوة أيضاً، سيكون من آثارها الإبقاء على انتحال ورثة القرآن وحملته وحفظته، ما دام كتاباً وعظيا إيمانيا، فأهله هم الوعّاظ والخطباء وأيّ حنجرة صيّاحة مِنْ الذين قدْ يجهلون حقائق الخلْق والعلم ولا يعنيهم أيّ جديد في قضايا الفكر والرّوح والنُّظُم، ناسين أنّ الإيمان والمواعظ الفيّاضة التي في الأحاديث القدسيّة والأمثال والحِكَم النبويّة فيها الشفاء والكفاء والبلاغ وهي أقرب للقلب وأسهل أخذاً تناولاً.

مشروحٌ ومفسّرٌ في القرآن من أعلى نقطة في هذا الوجود،.. حتى أنّ كل شيء فيه أصبح مفهوماً، .. وإنّي أعلن إسلامي))! المصدر:
http://members.tripod.com/ayahweijaz/space12.htm

الاحتمال الثاني: وهو الجواب الصحيح، أنّه كُتيّب إرشاد فعلاً بيْد أنّنا مثل الذين حُمّلوا التوراة ثُمّ لم يحملوها، الجواب الصحيح ثانياً، هو أنّا لا نُحسن قراءة كتيّب الإرشاد هذا الذي بين أيدينا، حفظّنا أبجديّةً غير أبجديّته، وطريقة قراءةٍ غير قراءته، أنّنا كشخص فارسيّ وقع بين يديه كتابٌ عربيّ وهو لم يأتِ على باله أنّ هناك لغةً تُدعى "عربيّة"، فرأى الخطّ فارسيّاً، والكتابة من اليمين إلى الشمال، وأكثر مِن نصف الكلمات يفهمها، فظلّ يجتهد في الباقي! وبهذا، ظللنا نتنتظر ونتربّص أيَّ نجاحٍ يقفز مِنْ كشفِ سرٍّ من أسرار آلة الكون، لنصرخ: هو ذا مكتوبٌ في هذا السطر في كُتيّبنا!

لمْ يعلمْ المفسّرون أنّ "كتاب العلم"/"أحسن الحديث" المضمّن في كاملِ كتابِ الله هو "كتابٌ متشابهٌ مثانيّ" يحتاج إلى تأويل لا اجتهادات ولا تفسير ألفاظ، فهذا ما أدّى إلى هذا، إنّهم أساساً لمْ يعلموا أنّ في كتيّب الإرشاد قواعدَ للتعامل المضبوط مع كتيّب الإرشاد، كأنْ يُفتَح مِنْ اليمين إلى الشمال، والأمر بالرجوع إلى صفحة كذا لمعرفة كذا، وأنّ مصطلحاته خاصّة به، وأنّ هنالك شفرات عصيّة عن الفهم لابدّ من احضار المختصّين لفهمها.. إلى ما هنالك.

هذا التناول، والخلط، فتح شهيّة أعداء الأمّة من مستشرقين، وناقمين، وأصحاب مللٍ أخرى عميت عيونهم عن خالق الكون منزل

التوراة والإنجيل والقرآن، فظنّوا أنّ الملل شرعها الله تعالى لتتحاسَد وتتزاحم وتتكالب على بعضها بالعداء والطّعون، فراحوا يطعنون في كتاب الله لأنّهم فقط يريدون أنْ يطعنوا في المسلمين، وكأنّما كتابُ الله هو للمسلمين أتباع النبيّ الأعظم محمّد (ص) فقط، بل هو للنّاس كافة، فهم كمنْ يفقأ عينه بيده، ويُطفئ نورَ موقِدِه المقدَّس بمائِه النجِس! حدَتْ ببعضهم الأغراضُ والأوغارُ إلى البحث عن تناقضات في كتاب الله العليّ، لكنّ المُدهش حقاً، أنّهم وهُمْ في عزّ اشتعال صدورهم، حين تناولهم لآيات الله عزّ وجلّ، لمْ يقولوا أنّ الآية تقول ذلك التناقضَ صريحاً، بل أحالوا اكتشاف التناقض على أنّ المفسّرين المسلمين يقولون كذا تفسيراً للآية، فهم في حقيقة الأمر ابتغوا إطفاء النّور فأوقدوه، إذْ لمْ يثبتوا سوى ثلاثةِ أمورٍ لا سادسَ لها:

- أنّهم كشفوا تناقض أقوال المفسّرين مع الحقائق والعلوم. وهذا أمرٌ كشفُه يُفيدُ الأمّة ويُفيدُ القرآن، ليعلو كلامُ الله مرّةً ثانية على غيره، وينعتق من خناق أقوال المفسِّرين.

- أنّهم كشفوا قصور النظامِ الموظّف في فهم القرآن، وحين طبّقوه بأنفسهم وقعوا في الفهم الخطأ المفضي إلى تصوّر وجود التناقض، كحالِ أسلاف المسلمين الذين فعلوا ذلك لكنْ بحسن نيّة.

- أنّهم كشفوا جهْلهم بلغة القرآن، وبأمراضهم وعُقدهم ودنيء مآربهم واختلال فلسفة انتمائهم للرّحمن.

وفي كلّ تلك المحتملات الصحيحة، أرادوا أنْ يضرّوا القرآن فنفعوه ونفعونا، لو كُنّا وكان المسلمون يعلمون.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)(فصلت:53).

وفي الختام؛ إنّ الاسترشاد بتلك القواعد والمعطيات التي سطّرناها، هي محاولة تقريب لا أكثر، وبتطبيقها سيكتشف الفرد (والأمّة) حسْب اجتهاده الصادق افتراقاً واضحاً بين ما درج على فهمه واعتقاده وراثةً، وما يقوله القرآن العظيم من جهة، في كثير من الحقائق الصادمة هي لبّ العقيدة اليوم، سواءً فيما يتعلّق بمفاهيم القرآن نفسها، من خاصّ وعامّ، وناسخ ومنسوخ، ومعنى "الوحي" و"القرآن" و"الفرقان" و"الترتيل" و"المحكم والمتشابه"، أو ما يتعلّق بتفسير آياته وأحكامه، وإدراك قصصه، وفكّ رموزه، وسيتطهّر الفكرُ في مغتسَلٍ نقيٍّ مِن أدران تزويرات التاريخ وكدورات الأفهام وأوضار الإضافات، ليفهم حقائق التاريخ والكون بعقلٍ أنظف، وصدرٍ أرحب، وإشراقة روح، ضمن منهجيّةٍ واضحةٍ شاملة، تقيه مشاكساته مع ألفاظِ كتابِ ربّه وآياته ونظامه، وتقيه إيّاها مع نفسه، ومع نظام اللغة، ومع نظام الكون، وسيصبح له القرآن نوراً يمشي به في النّاس، كما هو على الحقيقة، وكما كان يُراد.

نحنُ لا ندّعي القدرة على تفسير آيات القرآن على الحقيقة بما عجز عنه المفسّرون فضلاً عن تأويلها، فهذا ادّعاءٌ عظيم، إنّما ندّعي أنّ القرآن العظيم لمْ يُفسَّر بعد، لأنّه قُدِّس كميّتٍ لا كحيّ، وأنّ النّظام الحاليّ الموجود المستنسخ جيلاً وراء جيل لنْ يُفضي إلى تفسيره أبداً. فما لمْ تتغيّر عقيدتُنا تجاه القرآن العظيم أوّلاً فلنْ يُتاح لنا أنْ نستلم عقائدَنا الصحيحة منه أبداً، هذا أوّلاً وهو آخراً.

والحمد لله ربّ العالمين.

والصلاة على خير هادٍ للعالمين وآله الطاهرين وصحبه الأكرمين ومن اتبّعهم بإحسان إلى يوم الدين

ثوابتنا حول القرآن

1. إنّ القرآن، هو المرجع في أمور الإسلام والإنسان، وهو المهيمن، بشريطة أنْ يُقرأ كما حدّد هو، بلسانٍ عربيّ مبين ووفق نظامه المُحكَم لا وفق أنظمة الرجال وتخميناتهم.

2. القرآن هو النصّ القدسيّ الوحيد الذي لمْ تمسّه يد التحريف والتزوير ولا الزيادة والنقصان بضمانٍ ربّانيّ مُحقَّق، لا التوراة ولا الإنجيل ولا المرويّات، بل ولا كُتب التاريخ أيضاً.

3. لا يعلو على كلام الله كلام، والمرويّات الشريفة مهما كانت فينبغي أنْ تخضع للقرآن ليُصدّقها لا العكس (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)(آل عمران:3).

قائمة المصادر والمراجع

أوّلاً – العربيّة:

1- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**/ ضبط صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر،1415.

2- ابن حنبل (أبي عبد الله أحمد بن محمد)، **المسند**، ط1 [بهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال]، بيروت: دار الفكر.

3- ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا)، **معجم مقاييس اللغة**، ط1 [جديدة مصححة وملونة]، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001.

4- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن كثير)، بيروت: دار المعرفة، 1412هـ.

5- ابن منصور (سعيد)، **السنن**/ تحقيق سعد آل حميد، ط1، الرياض: دار العصيمي، 1414.

6- البخاري (محمد بن إسماعيل)، **أفعال العباد** والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404/ 1984.

7- البستانيّ (بطرس)، **محيط المحيط**، بيروت: مكتبة لبنان، 1977.

8- البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي)، **السنن الصغرى**/ تحقيق محمد الأعظمي، ط1، المدينة المنورة: مكتبة الدار، 1410/ 1989.

9- الجزائري (السيد نعمة الله)، **قصص الأنبياء**، ط8، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1398/ 1978.

10- الدرويش (محي الدين)، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، ط1، حمص، سوريا : دار الإرشاد ، 1993.

11- الروياني (محمد بن هارون)، **مسند الروياني**/ تحقيق أيمن على أبو يماني، ط1، القاهرة: مؤسسة قرطبة، 1416.

12- الريشهري (محمدي)، **ميزان الحكمة**، ط1[منقحة]، قم (إيران): دار الحديث، 1416هـ.

13- الزبيدي (محمد مرتضى)، **تاج العروس**، بيروت: مكتبة الحياة.

14- الزرندي (أبو الفضل مير محمدي)، **بحوث في تاريخ القرآن**، ط1، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، 1420.

15- الشريف الرضي (محمَّد بن الحسين بن موسى) ، **نهج البلاغة**/ شرح محمد عبده، بيروت: دار المعرفة.

16- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، **فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، عالم الكتب.

17- الصدوق(محمد بن علي بن بابويه)، **كمال الدين وتمام النعمة**/ صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، محرم 1405.

18- الصنعاني (أبي بكر عبد الرزاق) ، **مصنف عبدالرزاق**/ حبيب الرحمن الأعظمي، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1402.

19- الطبرسي (أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب)، **الاحتجاج**، ط2، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1403/ 1983.

20- الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم)، **المعجم الكبير**/ تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط2، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، 1404/ 1983.

21- الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم)، **المعجم الأوسط**/ تحقيق طارق محمد وعبدالمحسن الحسيني، القاهرة: دار الجرمين، 1415.

22- الطباطبائي(السيد محمد حسين)، **الميزان في تفسير القرآن**، ط2،، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1392/ 1972.

23- الفراء(أبو زكريا يحيى بن زياد الأقطع)، **معاني القرآن**/ تحقيق أحمد نجاتي ومحمد علي النجار، ط2، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980.

24- القرطبي (محمد بن أبي بكر بن فرج)، **التفسير**/ تحقيق أحمد البردوني، ط2، القاهرة: دار الشعب، 1372.

25- الكليني(أبي جعفر محمد بن يعقوب)، **الكافي**/ تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار الأضواء، 1405/ 1985.

26- المتقي الهندي (علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين)، **كنز العمال**/ تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة.

27- المجلسي (محمد باقر بن المولى محمد تقي)، **بحار الأنوار**، ط2، بيروت: مؤسسة الوفاء، 1403/ 1983.

28- المحقق الحلي (أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن)، **المختصر النافع** في فقه الإمامية/ تحقيق الشيخ القمي، طهران: مؤسسة البعثة، 1410.

29- الميرزا النوري (ميرزا حسين بن محمد تقي الطبرسي)، **مستدرك الوسائل**، ط2، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1409هـ.

30- المحمودي (محمد باقر)، **نهج السعادة**، ط1، النجف الأشرف: مطبعة النعماني، 1385.

31- الهيثمي (علي بن أبي بكر)، **مجمع الزوائد**، القاهر، بيروت: دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، 1407.

ثانياً- الإلكترونية:

أ - القرآن:

1 – سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني، الرياض: المملكة العربية السعودية، 2001.

ب - التوراة:

- Rick Meyers,**E-Sword**, Ver 7.1.0,2000-2004, http://www.e-sword.net

- **Online Bible Millennium Edition**. Version: 1.11.90, Mar 28, 2002, http://www.onlinebible.net/.

ج – أقراص مدمجة:

1 – مركز المعجم الفقهي، **برنامج المعجم**، الإصـــدار الثالـــث، قـــم المقدسة، 1421هـــ.

2 – مركز التراث لأبحاث الحاســب الآلـــي، **المكتبـــة الألفيـــة للـــسنة النبوية**،الإصدار 1.5، الأردن(عمـــان) : مركـــز التـــراث، 1419/ 1999.

د – الإنترنيت :

- http://members.tripod.com/ayahweijaz/space12.htm

فهرست المحتويات

سلسلة عندما نطق السراة

1. مفاتح القرآن والعقل.
2. التوحيد..عقيدة الأمة منذ آدم.
3. جنة آدم تحت أقدام السراة.
4. اللسان العربي..بعد فطري وارتباط كوني.
5. الإنسان الإنسان..وتحسب أنك جرم صغير.
6. نداء السراة..اختطاف جغرافيا الأنبياء.
7. ليلة القدر..عيد الخليقة.
8. طوفان نوح..بين الحقيقة والأوهام.
9. بين آدمين..آدم الإنسان وآدم الرسول.
10. مسخ الصورة..سرقة وتحريف تراث الأمة.
11. الأسطورة..توثيق حضاري.
12. وعصى آدم..الحقيقة دون قناع.
13. الخلق الأول..كما بدأكم تعودون.
14. اليهود وتوراة الكهنة.

تسجيل: 414